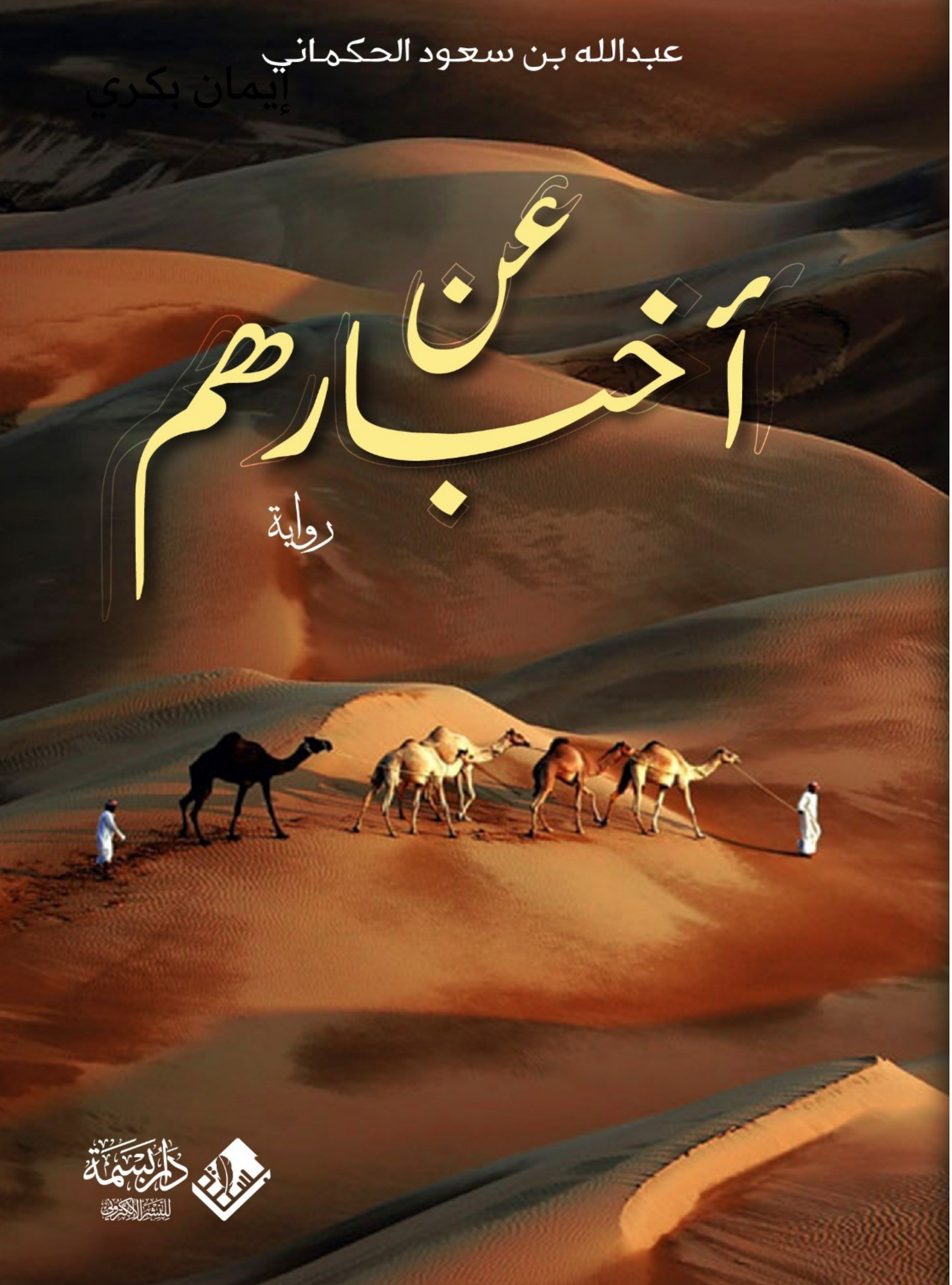

عبدالله بن سعود الحكماني

إيمان بكري

عن آخبارهم

رواية

دار بسمة للنشر الالكتروني

عن أخبارهم

اسم الكتاب: عن أخبارهم

اسم الكاتب: عبد الله بن سعود الحكماني

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 230228-216-1-16

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2023م / 1444هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

عن آخبارهم

رواية

عبد الله بن سعود الحكماني

بسم الله الرحمن الرحيم

تنويه

عزيزي القارئ: هذا العمل من وحي الخيال الأدبي وفي حال تطابق مع شيء من الواقع فهو من باب المصادفة لا أكثر ولا أقل.

الفصل الأول

-1-

نشأ سعيد ما بين البرّ والبحر في أولى سنوات العمر. فكان والده يملك عددًا غير قليل من الإبل، ويتنقّل بهذه الإبل من شعبةٍ إلى شعبةٍ ومن مرعى إلى مرعىً حيث أنه قضى جل عمره في هذه الحرفة التي لا مفرّ له منها؛ فهي كل حياته، وكان سعيد ابنه الوحيد الذي جاء بعد لحظة شعورٍ فاجأت الوالد بأن يصبح لهُ وريثًا ليرثه الإبل كما يرثه الاسم، فجاء سعيد من زواج والده الذي لم يستغرق أكثر من ثلاثة أيام قضاها والد سعيد مع زوجته وأحسَّ بعدها بأنه غير صالح للحياة الزوجية، بل يصلح فقط أن يكون راعيًا لإبله في عرض الصحراء، فبعد ثلاثة أيام طلّق زوجته عن تراض بينهما وعاد إلى إبله، ولكن سعيد جاء بعد هذا الزواج القصير من أمّ تسكن بالقرب من ساحل الباطنة؛ حيث يسكن أهلها وجماعتها. وعاش في كنف جدّه لأمه وأخواله إلى أن وصل عمره ما يقارب السبع سنوات؛ ولأن الأبناء الذكور قديمًا تشدّهم عاطفة الأبوّة أكثر من عاطفة الأمومة، ولأن والدته تزوجت بعد والده برجل آخر، قرّر سعيد في ضحى يوم ممطر عندما رأى البروق وسمع الرعود من

جهة الصحراء المحاذية للبحر وذكّرته بوالده الذي سمع عنه بأنه يسكن الصحراء مع الإبل أن يهجر الساحل ويعيش في الصحراء مع والده؛ فأخذ بعضًا من التمر في هبّانه والقليل من الماء في سعنه، وذهب مشيًا على الأقدام والأقدار ليواصل رحلته الأبدية إلى والده، ثم العيش الأبدي معه. فأول ما قابل سعيد بعد خروجه من البيت رجلٌ يحمل على راحلته بضاعة بسيطة وهي عبارة عن البنّ والتمر ليبيعهما في إحدى الأسواق الشعبية، وكان رجلًا خيّرًا فعرض على الولد أن يركب معه على الراحلة إلى السوق، ثم يواصل الولد رحلته. وتم ذلك بعدما سأل الرجل الولد عن مقصده، وأخبره بما كان ينويه. فركب الولد رديفًا مع الرجل التاجر حتى وصلا السوق الشعبي، وكان الرجل يعلم بأن أصحاب الإبل يأتون أحيانًا للبيع والشراء في هذا السوق، وما أن وصلا إلا وكانت المفاجأة!

-2-

نزلا الرجل والولد عن الراحلة أمام السوق ووجدا هناك مجموعة من الرجال، وبعد الأسئلة والأجوبة عن (العلوم والأخبار) قال الرجل التاجر: هذا الولد يبحث عن والد له يعيش في الصحراء مع أهل الإبل، ووالده يسمَّى: محمد الحكماني؛ حيث أن والده تزوج منذ سبع سنوات من قبيلته التي تقطن الساحل، ثم ذهب إلى الصحراء مرة أخرى حيث موطنه الأساسي وبعد ذهابه أنجبت زوجته التي طلقها طفلًا يسمَّى: سعيد، والآن سعيد ها هو يبحث عن والده محمد ليعيش معه.

فكان من بين الرجال الذين أتوا إلى السوق الشعبي محمد والد سعيد؛ حيث اعتاد أن يتسوّق من هذا السوق في كل شهر مرة واحدة ثم يرجع إلى إبله في الصحراء.

كانت فرحة والد سعيد بولده لا توصف فلم يستطع السيطرة على دموعه التي تساقطت واحدة تلو الأخرى من الفرحة! وأخذ يحضن ولده، ويسأله عن حاله وحال أهله وأخواله؟

ثم قال له: سنأخذ أغراضنا من السوق وسنغادر مباشرة إلى الإبل في وادي جاسم؛ حيث المرعى الخصب.

اشترى محمد والد سعيد العدّة والعتاد والزاد الشهري من أرز وتمر وقهوة وملح وسمن وعسل بما يقارب الثلاثة قروش، ثم أضاف إلى بضاعته بعضًا من الحلوى في سيلكٍ واحد، ثم زاد عليه سيلك ثانٍ فثالث فرابع! وأخذ كيسًا من الدنجو للولد أيضًا، وكان محمد لا يخلو من كرمٍ وسخاء كعادة أهل الإبل في الصحاري، إضافة إلى أن فرحته بولده ضاعفت كرمه وسخائه.

-3-

خرجا الوالد وابنه من السوق على ظهر سمحه، وكعادة سعيد عندما يطول عليه الدرب وهو على ظهر ناقته يقوم بتقصير المسافة ما بين المكان الذي يزوره والمكان الذي يسكنه بالتغرود. وذلك لأنه لديه مقدرة على تأليف الشعر وكذلك على أدائه صوتيًا أي الغناء الذي يسمى عند أهل البادية بالتغرود.

أخذ يغرِّد على ظهر ناقته وابنه بجانبه وهذه المرة كانت التغرودة تعبّر عن مشاعر الأب تجاه ابنه الذي وجده صدفه، وكأنه نزل عليه من السماء فقال:

(يا مرحبا بسعيد ونحيّيبه   يللي مضت لي سنين وهاذيبه

اليوم لاقيته ونفسي طيبه   كنّي امـــطرّش مــــالغريب اييبه

الله يبـارك فيـــه ويـهنّيبه   ويكون عـوني فالـرخا والصيبه)

وكان سعيد يستمع لما يقوله والده فيه من شعر، وبالرغم من أنه لم يجرّب مثل هذا الكلام، ولكنه سمع ما يشابه هذا الكلام من أخواله وجيرانه، ويحفظ بعض الأبيات منه، فأحسّ بداخله كلامًا يريد أن يقوله عن

مشاعره وفرحته بلقاء والده! وبهذه الصدفة التي حدثت له ولم يكن يتوقعها. وبينما الوالد يغرّد وسمحه تسير بسرعة فائقة لكونها استأنست بالغناء، قال سعيد أبياتا يجاري فيها والده:

(يامرحبا يا حيّ بك يالشيبه

يللي مقامك فوق واغلّيبه

حمدت ربي يوم يات الثيبه)

ثم توقّف الابن سعيد عن الإطالة لكونه أول مرّة يقول الشعر وليس لديه طول نفس في ذلك. فبعدما صمت الابن أخذ الأب يبتسم ابتسامة من عمق القلب! لأنه تيقّن أن ولده يشبهه من خلال نظمه للشعر، وقال لابنه: (عطني خشمك) فراح يخاشمه، وذلك دليل على الرضا والسعادة بموقف الابن عندما قال الشعر.

-4-

اعتادت غنيّة والدة سعيد على ولدها أن يذهب صباحًا يلعب مع أطفال الجيران ثم يعود وقت الظهر، ولكن في هذا اليوم انتظرت إلى أن غابت الشمس ولم يعد ابنها سعيد! فأخبرت زوجها وأخوانها بذلك لكي يبحثوا عنه؛ فذهب أحد أخوانها إلى الجيران ولم يأتوا له بخبر عن ابن أخته، وبينما هم مجتمعون بعد أذان العشاء للرمسة ويتناقشون في شأن سعيد وغيابه المفاجئ قام سالم بن حمد ابن خال سعيد وقال: (قبل يومين كان سعيد يقول لي أنا والدي عنده إبل في الصحراء ويعيش في وسط الأعشاب مع إبله يصطبح ويغتبق بلبنهنّ، ويشم رائحة العشب الزكيّة، ويشرب من ماء الغدير العذب وأنا لا بد أن أذهب إليه)!فلما سمعوا كلام الولد سالم صمتوا جميعهم واطمأنّوا على أن الولد سعيد ذهب بحثا عن أبيه ولذلك عليهم أن يسألوا عنه المسافرين من الساحل إلى الصحراء أو أصحاب الابل الذين يأتون إلى سوق بركاء والأسواق الشعبية المجاورة. فقال علي زوج أم سعيد: أنا غدًا سأذهب إلى السوق وإذا وجدت هناك أحدا من أهل الإبل سأسألهم عنه. واتفق الجميع على ذلك، وأيقنت غنية أم سعيد بأن ولدها لم يذهب إلا إلى والده؛ لأنه

كثير السؤال عنه بعدما رأى أبناء أخواله لكل منهم أب ينادونه كل لحظة وهو ينادي خالي وليس أبي!

-5-

وصلا سعيد ووالده إلى العزبة في وادي جاسم حيث كانت الإبل تجتمع في مساحة من سليل السمر ما بين واقفة وباركة وبجانبها سمرة وضع عليها أدوات العزبة وأدوات صاحب العزبة كالخرج والهبان، وجراب التمر والكرمة التي يوضع بداخلها اللبن عندما يكون طازجًا والمغلي الذي يُستَخدم لتسخين اللبن بالرغم من أنه لم يتم استعماله منذ شرائه إلى الآن لكون محمد لا يشرب لبن الإبل إلّا طازجًا ودون تسخين! ومن الأدوات المعلقة بأركان السمرة سعن الماء، وكذلك اللحاف وهو عبارة عن شملتين وسمّة مصنوعة من السعف، ثم أدوات القهوة كالميقعة والسفن ومعها الكبريت وغيرها الكثير.

وقبل أن يبدآن بالجلوس تحت السمرة التي تعتبر بمثابة البيت وضعوا أغراضهم معها، ثم انتقلوا إلى الإبل ليتعرّف سعيد على إبل والده وسلالاتها، وكان عدد الإبل يقارب العشرة أو يزيد قليلا. فأخذوا جولة تعريفية بينهنّ! فأول ما واجهه محمد من الإبل سمحة وهي أم سمحة التي جاءا على ظهرها من السوق وأعطاه شرحًا مفصلًا عن سمحة الأم، فقال: هذي سمحة اشتراها والدي من ابل رجل من قبيلة القعنوني

وسلالتها تسمى سمحات القعانين –سلالة مشهورة جدا –وجاءت بثلاث بكرات ثم التفت إلى أخرى وقال: وهذي فرحة اشتريتها من عند رجل من قبيلة آل وهيبة –وهي من السلالات الأكثر شهرة في الجزيرة العربية– ولها ثلاث بكَرات وقَعُود لكن القعود بعته قبل أشهر بثلاثين قرشًا على رجل من الرستاق في سوق الملدّه. أما السلالة الثالثة فهي عرجة وهي واحدة فقط اشتريتها من رجل حكماني من قبيلتنا يسكن المنومة، أما السلالة الرابعة فمصيحة وقد اشتريتها منذ مدّة قصيرة من سوق خضراء آل سعد من رجل سعدي. وبعد انتهاء الجولة التعريفية عاد محمد وابنه إلى ظل السمرة وتناول محمد أدوات القهوة، وأخذ يصنعها وفي نفس الوقت طلب من ابنه سعيد أن يراقبه وهو يصنع القهوة لكي يقوم بعد ذلك هو أي سعيد بدور صناعة القهوة.

-6-

ذهب علي عمّ سعيد صباحًا إلى السوق ليسأل عنه من يقابله وأمام دكان درويش البلوشي وجد رجلًا جاء من البادية فسأله عن محمد أولًا: فقال الرجل: نعم التقيته هو وابنه الذي جاء من الساحل بحثًا عن والده لينضم إلى أهل الإبل ويعيش في الصحراء. ففرح عليٌّ وشكر الرجل على هذا الخبر المفرِح، ثم عاد إلى زوجته وإخوانها ليخبرهم بذلك وفرحت العائلة كلها واطمأنت على ابنها سعيد لكونه التقى بوالده وكما أنهم يؤمنون بأن الولد نهايته لوالده وليس لأخواله، وقال حمد خال سعيد ضاحكًا: (ربّني واندلّ هلي)!

-7-

اعتاد محمد في وقت العصر على زيارة جيران له في الأماكن والشعاب المجاورة، ولكن هذه الليلة لم يأت إليه إلّا خميس السيابي ومعه ابنه محمد بن خميس وبعدما ألقى خميس التحية على محمد ورأى الولد معه سأله: ابن من هذا؟ فقال محمد: هذا ابني سعيد بن محمد بن حمد بن نايعه القرفوصي الحكماني. فقال خميس: (ونِعْمَ)، ثم قام سعيد ليصنع القهوة للضيوف وكانت هذه أول مرَّة له في صناعة القهوة ولم يكن يخلو من خوف ألا تأتي على ما يريدها كبار السّن. بعدما شرب الضيوف أولًا وكالعادة ثلاثة فناجين بعد ثلاث تمرات لم يسيطر الضيف على مشاعره وذهوله من قدرات هذا الولد الصغير على صنع قهوة بهذا المستوى من الجمال والحلاوة! وكان قبل ذلك معجبًا بصناعة محمد بن حمد للقهوة فقال مادحًا الابن: (صدق من قال كل بذرة تشبه على شيّابها).ودارت الفناجين بعد ذلك ما بين كبار السّن وصغارهم وباتت الرمسة على النار المشتعلة التي جُمِعَ لها حطبًا من السمر المجاورة ووضعت خبزة الجمر على النار، ثم بعدما نضجت وضعت بداخل وعاء معدني وسُكِبَ عليها من سمن البقر البلدي ومن عسل النحل المحلّي ثم أعقبت بطاشة اللبن

وتواصلت الرمسة إلى منتصف الليل بحضرة نجوم الليل والقمر والنسمات الباردة من هبوب الكوس ورائحة المكان العبقة المحلاة برائحة الإبل.

-8-

قبل أذان الفجر بقليل قام محمد وصنع قهوته بنفسه قبل أن يقوم ابنه، ثم اتجه إلى الإبل ليتفقدهن كعادته، وبعد الاطمئنان على الإبل توجّه إلى فرحة، وكانت في حالة مخاض فتفاجأ بأنها ولدت بكرة مما جعله يهتم بالمولودة الجديدة في عائلة الإبل ويضع حولها السياجات حتى لا تدوسها الإبل، ثم حلب أمها وأخذ يجرّعها الحليب لأنها لا زالت لا تستطيع النهوض حتى تمصّ اللبن من أمها.

وقبل أن ينهي المهمة الوالد محمد قام سعيد الابن وذهب مسرعًا إلى الإبل والفرحة تغمره عندما رأى مولودة جديدة بينهنّ، وسأل والده (يابت بكرة ولّا قعود؟) أي ذكر أم أنثى، فقال الوالد: ولدت بكرة أي أنثى، ثم استغل الوالد فرصة الفراغ الصباحي وأخذ يعلِّم الابن بعضًا من المعلومات عن الإبل، فبدأ أولًا بمسمَّيات أعمار الإبل فقال له: هذه المولودة الجديدة تسمى حواره، والذكر يسمَّى حوار ويجوز أن نسمِّي الاثنين هذا الاسم سواء ذكر أو أنثى، وعندما نجمعهما تسمَّى حِيران. أمَّا الناقة التي تولد فتسمَّى (عزوف) وابنها أيضًا إضافة إلى حوار يسمَّى (ود عزوق)، ثم بعد أشهر من الولادة تسمى (قحور) وولدها يسمَّى

(ود قحور)، وعندما تكمل سنة واحدة تسمَّى (فطيمة) وهكذا في كل سنة سيكون لها اسمًا: فعمر السنتين تسمى (حقّة) وأكثر من واحدة (حقائق أو حقاقة)، وثلاث سنوات (لقيَّة) وأكثر من واحدة (لقايا)، وعمر أربع سنوات (يدعة) وأكثر من واحدة (يداع)، وعمر خمس سنوات (ثنيَّة) وأكثر من واحدة (ثنايا)، وعمر ست سنوات (رباعيّة)، وأكثر من واحدة (رباعيات)، وعمر سبع سنوات (سداسيّة) وأكثر من واحدة يقال لهنّ (سداسيّات)، وبعد ذلك من عمر ثمان سنوات فما فوق تسمَّى (فاطر) ويقال عند الجمع (فِطّر) وتكون فيه لكل سنة اسم ففطر أول ثم فطر ثان ثم ثالث إلى آخره، وكان الابن يسمع لوالده بكل شغف ويحفظ ما يقوله له من معلومات.

-9-

قامت غنيّة فجرًا لتسقي أغنامها وتطعمهن، ثم عادت إلى ذلك الخرج فأخذت منه أدوات القهوة وصنعتها لزوجها الذي ينوي صباح اليوم أن يذهب إلى البحر ليأتي لهم بما يجود به البحر من رزق عليه.

تناولا القهوة معًا ثم سخنت حليب الغنم في المغلي وهنا تذكرت ابنها سعيد لأنه كان يشاركها شرب الحليب في كل صباح؛ فقالت من سيشرب اليوم سهم سعيد؟! وردّ زوجها: لا تخافي على سعيد فسيجد حليبًا أفضل من هذا الحليب؛ فهو مع والده ما بين بنات سمحة وفرحة وعرجة!

-10-

بعد طلوعِ الشمس تناول محمد كرمته وذهب إلى إبله ونادى ابنه سعيد ليصحبه ويتعلم طريقة حلب الإبل فلبَّى الولد سعيد نداء والده وذهبا معًا، فقال الوالد للابن: عليك أن تشاهد بدقة كيف يتم حلب الإبل وغدًا ستكون أنت من يقوم بهذه المهمة، وقال له: يجب عليك أن تعلم بأن هذا الجانب (للحاشي) أي ابن الناقة والجانب الآخر (للحالب) أي من يقوم بعملية الحليب، وفي حالة لم تطبّق هذا العرف الاجتماعي ستصبح أضحوكة مع أهل الإبل والقبائل البدويّة؛ فلا بد أن تعرف هذا بما أنك جئت إلى الإبل، فقال الابن بإذن الله سأحفظ كل صغيرة وكبيرة تخص الإبل وحياة البادية لأني أريد أن أكون مثل والدي وأن أرثه هذه المهمة وهذه الثروة فتبسَّم الوالد وقال (ونِعْمَ وِلْدي) أريدك هكذا!

-11-

أخذت الشمس ترتفع رويدًا رويدًا والإبل بعد ما رعت وقت الضحى ما بين النباتات الصغيرة والسمر الكثيفة في الوادي احتاجت إلى الماء فاتجهت إلى طوي الصومحان حيث تورد الإبل من كل حدب وصوب، فقال الأب لابنه: هيا بنا نسير خلف الإبل لكي نسقيهنّ بالدلاء من تلك الطوي، فذهبا معًا وقضيا المهمّة، وعند عودتهما أخذ الوالد يُعلِّم ابنه بأسماء النباتات البريِّة التي تقابلهم في طريق العودة من البئر إلى العزبة، فمرَّا على مجموعة من الأعشاب فأخبره بأسمائها كالآتي: (الثمام، الضعي، الثرمد، الحرمل، العشرج، العكرش) وغيرها من النباتات الأصغر حجمًا (كالذعويت، القرمل، العتبيب، القطب، الخزامي وغيرها)، وكذلك الأشجار الكبيرة كالسمر والسلم والحضيب والغاف والسدر والرصراص والفشغ والشريش والاشخر و..و... إلخ. وكان الابن على أتم الاستعداد لجمع المعلومات وحفظها.

كما أنه شرح له أضرار بعضها وفوائد بعضها على الحيوان والإنسان ومواسمها وأماكن تواجدها بشكل أكثر، ثم أخبره عن المراعي الكبيرة والصغيرة في الباطنة وآبار المياه التي تردها الإبل، والطرق والشعاب

والجبال، ثم أضاف المراعي خارج الباطنة وخصوصًا في الشرقية والساحل الحدري فقال له: هناك مراعٍ كثيرة أيضا في عمانات، وكنَّا أنا ووالدي وجماعتي نرحل لها ولكنّي مضت لي أعوام عديدة لم أخرج من الباطنة بسبب مواسم الخصب الدائمة، وهنا كتم الوالد سبب آخر عن ابنه حيث أنه كان لا يريد الخروج من صحارى الباطنة بسبب ابنه الذي تواجد مع والدته في السوادي ورغم أنه لم يزرْه ولكنه يشم طفولته عندما يأتي بها الهواء إليه من جهة الساحل كل مساء!

-12-

كان هذا اليوم من الأيام التي جعلت سعيد يزداد حبًا أكثر للإبل وذلك عندما تأمل فيها واحدة تلو الأخرى، ورأى ألفتها ومحبتها ووفاءها لمن يعتني بها؛ فراح بيده ماسحًا على كل واحدة منها، فوضع يده أولًا على سمحة الأم من رأسها حتى ذيلها ومن سنامها حتى براسيمها، ولمّا رأى الأب شغف ابنه وتعلُّقه جاء مسرعًا ليزوده بمسميات أجزاء الناقة وبنفس الطريقة التي بدأها الابن في الناقة فمن الرأس إلى الذيل، ومن السَّنام إلى الخِفّ عدّد له الأسماء، ثم أضاف له معلومات عن الأدوات التي يتم استخدامها عند ركوب الناقة، وكذلك كيفية استخدامها كوضع الشداد مثلًا على السَّنام وتوابعه، ووضع الخطام والجَذال في الرقبة والرأس، ثم القيد في اليدين وأضاف له وضع الشمال حول الضرع عندما يراد للناقة أن تحتفظ بالحليب، وواصل بعد ذلك طريقة خداع الناقة عندما يموت ولدها أو يُباع وصاحبها يريدها أن تدرّ عليه بالحليب ويسمى هذا (البوّ)؛ حيث يأتي بجلد ويضع بداخله أقمشة أو أعشاب لكي تحسبه الناقة ولدها ثم تدرّ الحليب عليه وبعدها يأتي مالكها ليقوم بعملية الحلب.

وعند تجولهما في المساحة التي تدور بداخلها إبلهم لاحظ الأب إحدى إبله غير موجودة وهي بنت فرحة الثانية من بين بناتها الثلاث، وكانت قريبة من مرحلة المخاض؛ فقال لابنه: هيَّا بنا نذهب بحثًا عن فرحة لعلّها اختبأت في إحدى السمر التي يمتلئ بها هذا الوادي وأخشى عليها من أن تلد ويأتي الذئب فيأكل ولدها؛ فذهبا الأب وابنه بحثًا عن ناقتهم الماخض، وكان الأب ينظر في الأرض ليتتبَّع أثر ناقته – وهو من الرجال المعروفين في البادية بمعرفة الأثر سواء أثر الإبل أو الناس_ وقال لابنه لكي تعرف أثر الناقة تحتاج إلى كثرة مشاهدة آثار الابل في العزبة ثم تحتفظ بها في ذاكرتك وبعدها ستكون ممَّن يعرفون الأثر. جاءت أثر ناقتهم من العزبة إلى جهة الشرق أي أنَّها خرجت من العزبة شرقًا فتتبّعا أثرها، وخرجت بهما الأثر من الوادي تمامًا، ثم أخذا يسيران خارج الوادي في سيح طويل وأجرد والأثر لا تزال تقودهما إلى موقع صاحبة الأثر؛ فمشيا إلى أن وجدا ناقتهما خلف تلَّةٍ وبقربها يرقص ابنها أو مولودها الجديد، وكان الذئب يدور حولها وهي تركز بصرها تجاهه؛ فقام الأب وتناول بندقيته من على ظهره ووضع بجوفها تلك الرصاصة المصنوعة من شجرة البارود بعدما أستلّها من محزم الرصاص المربوط

على خصره، ثم أطلقها تجاه الذئب وسقط الذئب ميتًا في غمضة عين لكن قبل أن يطلق الأب رصاصته سأل ابنه :أين تريدني أصيب هذا الذئب؟ فقال الابن: في إحدى عينيه، وكان لزامًا على الأب أن يلبِّي طلب الابن فصوّب وأصاب الذئب في عينه اليمنى ثم تركه فريسة للطيور والزواحف. أما الناقة فتشاوروا على أن يتركاها في مكانها إلى أن يقدر ابنها على السير، وكان بالقرب من الناقة بعضًا من الثمام وهو يكفي أن يكون طعامًا لها فليست بحاجة إلى طعامٍ غيره، وبالنسبة للماء فلا تحتاجه لقصر المدة التي ستقيمها هنا وبإمكانها أن تصبر عن الماء لمدة ثلاثة أيام أو أكثر في هذا المكان.

-13-

كان الوقت ظهرًا والوالد محمد في قيلولة تحت إحدى السمر المحاذية للعزبة، أما الابن سعيد فحاول أن يجلب النوم لعينيه ولم يستطع ففكّر في قضاء هذا الوقت بالذهاب إلى الإبل وراح يتبعها ناقة ناقة ليقتل حشرة القراد من كل واحدة منها إلى أن اكتمل العدد وانتهت المهمة فعاد إلى سمرة العزبة وأخذ الكرمة وعاد بها إلى الإبل، ثم أخذ يحلب إحداهن وتحديدًا القحور التي مازالت تدرّ الحليب وبكمية هائلة، ثم جاء بكرمته إلى السمرة ووضعها في جانب منها وتناول معاميل القهوة ثم قام بصنعها. عندما انتهى من ذلك تناول جراب التمر المرفوع على سمرة أخرى مجاورة فأخذ منه ما يكفي له ولوالده ولجارهم السيابي وابنه ثم أضاف قبضة أخرى من التمر وكما يسمِّيها والده (قسم اللاحق) وبعدما أنهى كل ما تم ذكره صلّى صلاة العصر التي تعلَّم أركانها من أخواله قبل أن يأتي إلى والده، وأخيرًا جلس ينتظر والده وينتظر الجيران ومن سيأتي من أهل الإبل عابرًا بالصدفة لهذا الوادي.

وحينما قام الأب محمد ووجد كل شيء تم تنظيمه وبدقة لا متناهية فرح فرحا شديدا وجلس بجانب ولده حول القهوة وعيناه باتجاه الإبل وهي

ترعى إما رافعة رأسها إلى أعالي السمرة أو خافضة رأسها لعشب الوادي، بينما الشمس تهبط من الأعلى إلى الأسفل وتصوّر مشهد الصحراء للابن بصورة كأنه لم يرها ذات عمر قضاه ما بين الساحل والمناطق الزراعية!

-14-

بعد قهوة الصباح واجتماع الأب محمد وابنه سعيد وشروق الشمس عليهما وانتشار الإبل ما بين الوادي والسيوح والشعاب المجاورة قال الأب لابنه: لقد حال الحول علينا ووجبت زكاة الإبل وهنّ في هذا العام قد وصل عددهنّ إلى عشرة إضافة إلى خمسة حِيران صغيرة ما بين حاشي وقعود لذلك لا بد أن نذهب إلى أهل العلم من بني خروص في نخل أو الرستاق لنستفتيهم، ولا شك أن المكان بعيد وسنغيب أيامًا عن الإبل وخصوصًا الإبل المصاغير التي بحاجة إلى رعايتنا فليس لدينا إلّا أن (نودّع) هذي الإبل أحد الأصدقاء من أصحاب العزب المجاورة، وجارنا الأقرب خميس السيابي ذهب يزور أبناءه في الجبال وترك ابنه في الإبل ولكنّي لا أثق في قدرات ابنه أن أودّعه إبلنا لأنه لا يزال صغيرًا وإبل والده كثيرة ولن يستطيع أن يراعي إبلنا وإبله المراعاة التامة؛ لذا أرى أن نترك الإبل مع جيراننا من قبيلة آل سعد وهم أهل إبل ولديهم معرفة واسعة بها.

وبعد أن أنهى الأب حديثه قال الابن سعيد: يا أبي يكفي أن ترحل أنت إلى العلماء لوحدك وأنا سأجلس مع الإبل كما جلس محمد السيابي مع

إبل والده وهو ليس بأفضل مني!

فابتسم الوالد وقال: يا ولدي سعيد وهل ستستطيع أن تقوم بالمهمة كما أقوم بها أنا؟

قال سعيد: نعم يا أبي.

فقال الأب: إذن سأعطيك هذه البندقية وهذا الحزم وأنا سأذهب إلى مهمتي وفي حال جاء أحد إلى العزبة من غير سكّان الوادي اضرب بالبندقية في الهواء باتجاهه ولكن لا تقتله. وفي حالة قال لك: (أنا صديق) وبادر بالتحية فأوقف الضرب بالسلاح واستقبله استقبال المعزّب للضيف، ولكن في حال كان يريد بك الشرّ فهنا (تعشّ به قبل أن يتغدّى بك).

قال سعيد: أبشر يا أبي.

فذهب الأب إلى مهمته وترك الابن مع الإبل.

-15-

عادوا أبناء السوادي من عند معلم القرآن ومرُّوا بالقرب من أم سعيد فتذكّرت ابنها الذي ذهب إلى والده يرعى الإبل وترك المكان خاليًا إلَّا من طيوفه التي تراودها صباح مساء.

وبعد طول تفكير اهتدت إلى أن الإبل هي التي تصنع الرجال وقارنت ما بين أخيها الذي عاش نصف عمره مع الإبل في صحارى الباطنة ووديان عمانات ولا يزال يعيش مع الإبل ولكنه في سيح السوادي بالقرب من أهله وجماعته، وبين أخيها الذي عاش نصف عمره على الساحل، فالأول لديه من الصفات التي تحبّها ما ليس لدى أخيها الثاني، وقالت: لعلَّ ابني سعيد يصبح أفضل من أخوته غير الأشقّاء له، كما أنها تذكَّرت تعليم والدتها لها في مدرسة القرآن وعدم تعليم أختها الأصغر فهي تحفظ الكثير من السور، ولكن أختها استطاعت أن تحفظ أكثر منها دون أن تذهب إلى مدرسة القرآن! والوقت الذي كانت تقضيه هي في مدرسة القرآن قضته أختها في رعي الغنم والآن لديها من الخبرة في مجال الرعي ما تعجز عنه جميع بنات القبيلة! فهي من تعالج الأغنام المريضة بالميسم، وهي من تتتبّع أثر الشاة التي تضيع من

القطيع، وهي التي تقوم بعمل القابلة بالنسبة للأغنام التي تتعسّر ولادتهنّ، وغير ذلك الكثير فيما يخص الغنم!

وقالت: سيكون ابني سعيد بإذن الله كأبيه في الإبل؛ حيث أنه يُضرب به المثل في معرفة الإبل سوى في معرفة أشكالها أو أنسابها أو آثارها، وحتى زواجي منه كان بسبب شهرته في القبيلة بأنه المتخصص في الإبل والقنّاص لصيد البر، والرجل السَّخي الشجاع ولكن الحظ لم يحالفني لذا اكتفى ببذرة واحدة وذهب إلى حيث يعيش! والآن ابني ذهب خلفه ولكنه ابني سعيد لن ينساني!

-16-

أقام محمد ناقته من المبرك ورفع عليها الخرج والهبّان والسعن وبعدها وثّق الشداد والمحوي واللحاف على ظهرها، ثم ربط خنجره في وسطه، وتلاها بالمحزم ووضع السكين منكوسة على رأسها بداخل الخنجر وأخيرًا وضع البندقية على كتفه وكعادته في طريقة الركوب المغايرة لكثير من أبناء جيله قفز من الأرض إلى ظهر الناقة والخطام في يده، ثم حرَّكها قليلًا بالعصا على جنبيها وهي قد اعتادت على أن العصا تعتبره أوامرًا من راكبها بأن تركض ولا تكتفي بالسير فقط.

فمنذ أن تحركت من العزبة الواقعة بوادي جاسم مسافة لا يعرفان عددها هي وراكبها وهي تركض! فأراد محمد أن يريحها قليلًا فخفف عنها بالمشي دون الركض.، وكان يقصد بذلك إعدادها لجولة ثانية من الركض إلى مكان المطوّع ليسأله عن زكاة إبله.

وفي الطريق أحس برغبة في أكل الفواكه التي منذ سنوات لم يتذوقها بسبب انشغاله بإبله، وما بين العزبة وبلد المطوع والأقرب منها إلى بلد المطوع من العزبة هناك راعية غنم تسكن في وسط سليل من السمر لا تنتقل منه إلى أي مكان آخر سواء في الخصب أو الجدب، وكان محمد

بين الحين والآخر يزورها خصوصًا عندما يحتاج إلى أكل الفواكه.

وصل محمد قبل المغرب إلى موقع راعية الغنم وألقى التحية ثم نزل من ظهر الناقة وتركها ترعى ذلك السمر المليء بالبرم والقرموص، وبينما هو يقضي ليلته مع راعية الغنم في الحديث عن الحيوانات والأمطار والمحل والقوافل التي تعبر المكان وتمرّ على راعية الغنم وبينما هما في عمق الحوارات وتبادل أطراف الحديث عادت مجموعة من الأغنام الباقية إلى مرابضها والمجموعة الأولى كانت قبل مغيب الشمس قد عادت وتم حلب الشاة الحلوب منهنّ.

قدمت راعية الغنم الواجب وأكثر للضيف ومن كل ما تملكه، وحين حانت ساعة النوم قام محمد لينام مع ناقته فوق تلة صغيرة بين واد من السمر، ونهض صباحًا فوجد القهوة قد صنعت له ووضعت بجانب شجرة السلم، بينما راعية الغنم ذهبت لترعى غنمها. فتناول قهوته وواصل المسير إلى المطوِّع، فوصل بلد المطوع الخروصي وقت الظهر، وكان المطوع محبوب الخروصي داخل مسجد الطين المجاور لبيته ومزرعته، فدخل محمد المسجد وصلّى مع الرجال صلاة الظهر جماعة، ثم صلّى العصر جمعًا لوحده، وبعدما انقضى الجمع توقّف المطوع محبوب

الخروصي أمام المسجد انتظارًا للغريب ولم يلبث أن خرج الغريب خلفه والتقيا وتبادلا التحية والعلم والخبر، ثم قال المطوَّع محبوب الخروصي للضيف محمد الحكماني: هيا بنا إلى المنزل لكي نتناول القهوة والغداء، فوافق محمد وذهبا معًا وتناولا القهوة والغداء ومباشرة بعد الانتهاء من الواجب بادر المطوَّع ضيفه بالسؤال الآتي: ماذا جاء بك؟ فردَّ محمد جئت لأستفتيك في زكاة إبلي التي يصل عددها إلى خمسة عشر خابط؟ فقال المطوَّع: أمّا الفتيا فلها أهلها، ولكنّي سمعتهم يقولون الزكاة تجب عن كل خمسٍ من النوق، وزكاة نوقك يا محمد هي (ثلاثة رؤوس من الغنم). فشكر محمد الحكماني المطوَّع وقال: جزاك الله خيرا، وبعد هذه الفتيا سأستأذنك بالمغادرة. قال المطوَّع: ولك منِّي الإذن. فعاد محمد الحكماني على ذلوله والفتيا في رأسه.

-17-

قررا سعيد بن محمد الحكماني ومحمد بن خميس السيابي الذهاب إلى القنص وكانا كلًا منهما يحمل البندقية على ظهره ويستعد لأي صيدة برّ تواجهه، وفي حين غفلة خرجا من الوادي جنوبًا باتجاه الجبال وقبل أن يصلا إلى الجبال وفي شعبة ذات أشجار أثل وسدر كثيفة رأيا مجموعة من الغزلان فوجّها بندقيتيهما باتجاهها وكل منهما أصاب واحدة فذهبا إليهما وأخذا صيدتيهما، أما القطيع التي لم تصب هربت إلى الجبال. فواصلا مهمة القنص، وفي غفلة من محمد السيابي رأى سعيد الحكماني غزالًا يقفز خلف شجرة سلم صغيرة فصوّب بندقيته باتجاهه وأصابه في مقتل. فوثب عليه وحمله على ناقته مع الصيدة الأولى، أما محمد فقد شعر بالحرج حينما رأى سعيد أكثر منه عددًا في القنص، فقال: أنا سأذهب لوحدي لعلِّي اصطاد أكثر من هذا الغزال ولا يرضيني واحدًا أبدًا، فراح يتبع الشعاب شعبة شعبة إلى أن اهتدى إلى مجموعة صغيرة من الغزلان فاصطاد واحدًا منها، ثم عاد إلى صاحبه سعيد وهو راضيًا تمام الرضى. وعاد الصديقان إلى الوادي كلًا منهما بصيده، ولم يكن أحدهم أفضل من الآخر، وفي طريقهما أرادا أن يذبحا القنص ويغسلانه

من ماء الطوي المجاورة، وبالصدفة وجدا فتيات على الطوي يسقين الغنم، ولم تكن هذه الفتيات من سكّان الوادي، فسألوهنّ من أين أتين؟ وإلى أين ذاهبات؟ فقلن لهما: أتين من شعبة السدر بعدما أصابنا المحل وجوّعِ أغنامنا، والآن ذاهبات بالغنم إلى الجبال الجنوبية لعلَّ المراعي هناك أفضل من مراعينا الأولى، أما هذا المورد فقد جئناه لنسقي الغنم، ونحن في طريقنا إلى الجبال، وأثناء تداول السؤال والجواب ما بين الفتاة الأكبر ومحمد كان سعيد يعيش لحظة مقارنة ما بين الغزلان التي صاداها هو وزميله محمد والغزلان اللواتي يسقين الغنم!

وبعدما أصدرت الفتيات غنمهنّ وغسّلا محمد وسعيد صيدهم بماء الطوي عادا إلى عزبتيهما وقلب سعيد ينبض بشيء لا يعلمه لكونه أول مرّة تأتيه حالة كهذي! وبدون أن يقصد ذلك خرجت منه قصيدة حيث قال من فن الردح:

من يوم ما جينا على العدّ   فوق الذلـــول اللــي لها شان

قلبي انثقب من رمحٍ أسودّ   مرسول لي من دعْج الأعيان

فرد عليه محمد مباشرة وقال:

يا سعيد شفته صابك الودّ من يوم ما لاقيت غزلان
لكـن تـراه الريم له حـدّ عنّك وعيش الوقت سلوان

-18-

وصل محمد الأب من رحلته إلى الوادي وقبل أن يجلس تحت السمرة الظليلة ذهب مباشرة إلى الإبل ليرى كيف كان حالها من بعده وأخذ يتتبّعها واحدة واحدة فوجدها كما كانت بل وأفضل حالًا، ورأى في ذلك أن الابن سعيد يُعتَمَد عليه الاعتماد التام في رعاية الإبل! فعاد إلى ظل السمرة وحيًّا ابنه وشكره على ما قام به من رعاية حسنة للإبل، وسأله عما حصل للإبل أو للوادي ورعاة الإبل، فقال سعيد: لم يحصل إلّا الخير يا أبي، وكما ترى الوادي على ما هو تراه والمحْل بدأ يعمّ المكان وعزبة خميس ستنتقل بعد عودته إلى الجبال، وعندما كان سعيد يحدّث والده عن خميس وعزبته ورغبته في الانتقال إلى الجبال تحضره صورة تلك الفتاة التي وجدها على الطوي وهي ذاهبة إلى الجبال. فردَّ الوالد محمد على ابنه قائلًا: بإذن الله سنسأل أهل الإبل عن أماكن المراعي وسنرى المرعى المناسب لإبلنا.

-19-

استيقظ سعيد صباحًا وأحس في ثوبه شيئًا لزجًا يشبه لثق التمر أو عبّود السمر، وحين اجتماعه بأبيه على نار الصباح وهما يتناولان القهوة أخبر والده بذلك فسكت الوالد وفهم السبب، وبعد برهة قال لولده سعيد: يا ولدي هيا بنا نذهب إلى سوق بركاء لأشتري لك خنجرًا وبندقية ومحزمًا تناسب عمرك الحالي فأنت أصبحت رجلًا تستحق أن تتسلّح، وعادة القبائل من يتلثّق ثوبه ليلًا يتسلح نهارًا.

فسافرا الأب وابنه إلى السوق الشعبي وتركا العزبة في رعاية جارهم الجديد محسن الجهوري.

دخلا محل خلفان الصائغ ليأخذا منه خنجرًا، فعرض خلفان الصائغ كل ما عنده من الخناجر ذات القرون المتنوعة منها ما تسمى قرن زرافة وهي أجود أنواع الخناجر العمانية في هذا الزمن، فأول ما رأى الأب هذه الخنجر قرّر أن يشتريها ولكنه أراد أن يختبر خلفان الصائغ فقال له: هذه الخنجر (ما تأكل) ففزّ خلفان غاضبًا وقال: (حشا لله) هذي الخنجر لو أردت أن تقص بها جوس النخل لقصّته، ثم أردف قائلًا وبافتخار نحن أولاد الصائغ صناعتنا للخناجر من زمن الإمام ناصر بن

مرشد اليعربي، وكل الخناجر التي كانت في أيدي الإمام ناصر بن مرشد اليعربي وجيشه أثناء حرب البرتغال من صنع أيادينا، وإذا لم تصدّق هذا الكلام فاسأل كل القبائل العمانية من غافري وهناوي ومن صغير وكبير ومن رجل وامرأة، وإذا لم يقولوا لك بأن خلفان الصائغ صادقًا فأدفنّي حيًّا!

بعدما رأى محمد هذا الشعور الصادق في خلفان الصائغ أرسل ابنه محمد إلى الهبّان المعلّق على ظهر الناقة ليأتي له بالقروش ويشتري بها الخنجر، ثم طلب من خلفان الصائغ أن يعطيه سيرًا مذهّبًا للخنجر وليس مفضّضًا، وكان يهدف الأب في شراء السير المذهّب إلى غرس حب الظهور بالمظهر الحسن في ابنه أمام القبائل! وعند انتهاء شراء الخنجر تحوّل محمد وابنه إلى محل بيع البنادق المجاور، وأخذ كذلك بندقية جديدة تسمى صمعا، وبعد انتهاء المهمة عادا الأب وابنه إلى إبلهما وأحس الأب بالاطمئنان الكبير على ولده عندما رآه يحمل السلاح.

وفي طريقهما راح يُعلِّمه كثير من الأمور التي تعينه في حياته ويجب أن يكون على علم بها، وأول ما قام بتعليمه له هو النسب وصلة القرابة،

فقال له: يا ابني سعيد نحن قبيلة من قبائل العرب جئنا إلى عمان بعد انهيار سد مأرب مثلنا مثل غيرنا من القبائل وبعض جماعتنا ذهبوا إلى أطراف الحجاز واستقروا هناك ولا يزالون ولهم حدود وحكم في بلدانهم، أما نحن حكمان عمان فأول ما جئنا استقرينا في ظفار لمدة قرون طويلة وكانت لنا القوة العظمى ولكن بعدما دارت الحرب بيننا وبين القبائل المجاورة التي انتصرنا بها في البداية قبل أن تجتمع علينا القبائل جميعها وتحضى بالنصر خصوصا عندما أعطت العجوز الداهية خصمنا خطة حربية قل نظيرها في ذاك الزمان حيث نصحتهم باستخدام جذوع الشجر الرطبة كدروع مما جعل سيوفنا أثناء القتال تلتصق بالجذع الرطب ويتمكن الطرف الآخر من الفوز! اضطررنا للبحث عن أماكن أخرى آمنة وان كان بعضنا لا يزال هناك وتحديدًا ما بين الجبال والساحل. أما نحن فاتجه أجدادنا وكثير من جماعتهم إلى السواحل الشرقية أي بحر العرب والشمالية أي خليج عمان. فانقسمنا ما بين الساحل الحدري الذي يسمى محوت والساحل الشرقي الذي يسمى جعلان والساحل الشمالي الذي يسمّى بركاء لذلك ستجد جماعتك في كل هذه الأماكن المذكورة وفي حال احتجت إليهم فهم عزوتك وعدّتك

وعتادك كما أنه لهم صلة قرابة في معظم القبائل العمانية من ظفار جنوبا إلى الباطنة شمالا ومن صور شرقا إلى أبوظبي غربا فاحتفظ بصلة قرابتك كما تحتفظ بقبيلتك. والإنسان مهما كانت قوّته لا يمكن له أن يستغني عن حبل فما بالك بالاستغناء عن الناس!

-20-

في المساء ذهب الأب من عزبته لزيارة العِزَب المجاورة للسلام عليهم أولًا لكونه منذ مدة لم يلتق بهم وثانيًا لكي يستطلع أخبار ما نتج عن المحل في الوادي وأخبار الخصب في المناطق الصحراوية التي نزلت بها الأمطار مؤخرًا. فبدأ أولًا بأقرب عزبة له كانت لمجموعة شباب من قبيلة آل وهيبة جاءوا من المضيبي والآن يرغبون الرجوع إليها بعدما سقطت بها الأمطار الغزيرة وأخصبت المراعي هناك. فسألهم عن أخبار الخصب في بلادهم وعن نيتهم في الرجوع إلى هناك وأكدوا له صحة الخبر، وبعد زيارتهم مباشرة انتقل إلى عزبة أخرى لقبيلة آل سعد وسألهم عن الخصب والترحال فأخبروه بأنهم أرسلوا أحدهم يستطلع المراعي الواقعة ما بين وادي بني خالد وإبراء، فوجدها مخصبة والآن ينوون الرحيل إليها وبعضهم لن يكتفى بالإبل بل سيرحل بأغنامه وعائلته إلى هناك فهم اعتادوا الرحيل إلى تلك المنطقة ويعتبروها كأنها وطنهم، وواصل محمد زياراته الاستطلاعية إلى العزبة الثالثة حيث كان يسكنها قبيلة الدواحنة، فقال له سليمان الدوحاني: أنا ذهبت بنفسي إلى المرعى الواقع ما بين وادي الحواسنة ووادي بني عمر وبالتحديد المكان الذي يسمى مرعى

القبائل فوجدت كل القبائل تقريبًا انتقلت إليه من قبائل غافرية وهناوية، فهناك (الحواسنة وبني عمر والبداة وبني سعيد والمقابيل وآل نعيم والشوامس والظواهر وبني كعب وبني قتب، وحتى من الغرب جاءت قبائل أخرى كبني يأس والمناصير وغيرهم من القبائل التي أرى وسيمة إبلهم في المرعى لكون المرعى قد امتلأ بالإبل من الجال إلى الجال ونحن غدًا بإذن الله سنسوق إبلنا إلى هناك).

فبعد هذه المعلومات الثريّة التي حصل عليها محمد الحكماني عن الأمطار والمراعي والترحال عاد إلى عزبته وأخبر ابنه بذلك ثم استشاره إلى أي وجهة سيتوجّه بالإبل؟ وعندما يئس الابن من أمل الترحال إلى الجبال قال: أنا لا أعرف جودة المراعي يا أبي لذلك الأمر بيدك واختر ما تشاء من مرعى وما عليَّ إلَّا أن أسوق الإبل أينما أردت.

فقال الأب: بما أن كل الإبل غادرت الوادي ولم يتبقّ إلّا إبلنا سنستغل الفرصة ونجعل إبلنا ترعى ما تبقّى من القرموص والبرم في هذه السمر ولمدة شهر من اليوم ثم بعد ذلك سنقرر أين الوجهة ستكون وخلال هذه المدة من جلوسنا هنا لدي رغبة في مشاركة العرضة التي ستكون بعد أيام في المصنعة فأنت كن في العزبة وبعدما أرجع من المشاركة في

العرضة فأنت ستذهب للسلام على والدتك وأخوالك في السوادي ثم ستقوم بشراء العدّة والعتاد من سوق بركاء أو سوق السيب وبعدها سنقرر الرحيل كما قلت لك، والآن (أعطني ذلولي بنت سمحة)!

-21-

تناول محمد الحكماني خطام بنت سمحة واتجه بها إلى المصنعة للمشاركة في العرضة مع مختلف مشاهير العرضة من القبائل العمانية بدوها وحضرها.

بدأت العرضة وكانت المشاركة الأولى مع ابن الإمام ومحمد الحكماني، فالسيّد ابن الإمام على ظهر ناقته سمحة ومحمد الحكماني على ظهر ناقته سمحة أيضًا وكانت المنافسة قوية وكان بإمكان محمد أن يكون هو الأول؛ لأن ناقته أخف وزنًا من ناقة السيد ولكنه احترامًا للسيد تأخر قليلًا عنه لكي يفوز، وبعد انتهاء المهمة عاد محمد الحكماني إلى عزبته وبادل ابنه الدور في الجلوس بالعزبة لكي يذهب الابن سعيد لزيارة والدته وشراء العدة للسفر، وفي أقل من يوم أنهى الابن سعيد المهمات ووجد أبيه على أهبة الاستعداد للترحال ولكنه لا يعلم الوجهة أين ستكون! أما الأب فقد وزّع الإبل إلى مجموعتين: حيث المجموعة الأولى والمكونة من نصف الإبل وبقيادة الابن ستكون وجهتها إلى مراعي الساحل الشرقي وسيتبع أخوال جدّه آل سعد، أما المجموعة الثانية فستكون بقيادة الأب وستتجه إلى مرعى القبائل وسيجاور الأب أنسابه

الحواسنة، فما أن وصل الابن حتى بدأ الأب في تطبيق ما قام به من توزيع على أمل أن يفترقا غدًا قبل طلوع الفجر كلٌّ إلى موقعه المحدد، ولكن استدرك الأب بعض الاقتراحات على الابن فقال له: الآن عندك عشرة رؤوس من الإبل ومنهنّ القوية ومنهنّ الضعيفة ومنهنّ الصغيرة ومنهنّ الكبيرة فانتبه على كل واحدة منهنّ في السير، كما أن لديك ثلاث من الأبكار وليس واحدة للركوب فاختر ما تراها تناسب أن تكون ذلولك، وأوصيك بسلاحك لا تنزله من فوق متنك من بدء انطلاقك من هنا إلى أن تصل المكان المطلوب، وخذ احتياطك في الطريق؛ فلا تمشي بدون ماء ولا تمشي في طريقٍ ليس به آثار الإبل والقوافل كما أن الدرب الذي يربطك من هنا بعمانات هو درب يأتي ما بين جبال سمائل وإزكي وهذا الدرب يمرّ على آبار وبإمكانك تسقي إبلك منها وتملأ سعنك ويمر أيضًا على بلدان زراعية وفيها أسواق شعبية يمكنك أن تشتري منها كل ما تريده ونسيت أن أخبرك كذلك فهناك أفلاج أيضًا ستكفيك عن مياه الآبار، ولكن هناك خطورة! فكن حذرًا من قطّاع الطرق، واجعل بندقيتك رميتها في فمها، ولا تجعل أي من قطّاع الطرق يقترب منك إلّا بعدما يعطيك عهد الله وميثاقه،

وعندما تصل إلى سيح البوش اسأل عن جماعتك الحكمان فهم أيضًا يأتون إلى هذا المرعى في سنوات المحل التي تصيب السواحل الشرقية وحتى إن لم تجد منهم من أتى إلى هناك فيمكنك أن تزورهم فهم ليسوا ببعيد فستجدهم ما بين جعلان والكامل، وفي الصيف بعضهم يأتون إلى المقيض في وادي بني خالد وإبراء والبلدان الواقعة بينهما، وستكون الأخبار ما بيننا عن طريق قوافل التجارة التي تأتي من السواحل الشرقية والحدرية إلى الأسواق الشعبية في السيب وبركاء. وعندما بان الفجر على الأب وابنه افترقا كلٌ منهما إلى مقصده، صاح الأب بأعلى صوته–وهو متوجّه غربًا– على ابنه: (وعليك بالناقة الخرسا سنّعها)، (وبنت شمطير خصّها بالطعام)!

-22-

غادر الأب الوادي والإبل تتبعه كما يتبع الأطفال والديهما، وفي طريقه غزته فكره أن يمر على أحد أبناء قبيلته الذي يسكن في سيح الشيوخ منذ سنوات بالقرب من بلدة زراعية ولكون هذا الرجل يملك ضاحية بها مجموعة من النخيل فلم يستطع الابتعاد عنها وكان في الصباح يذهب لمتابعة الإبل وفي المساء لمتابعة الضاحية فجاءت فكرة لمحمد بأن يأخذ إبل هذا الرجل إلى المرعى ويتكفل برعيها في العشب كخدمة إنسانية يقدمّها للرجل. ووصل إلى مكان الرجل وبعدما تقهوى وتغدّى معه أخبره بالفكرة. فوافق الرجل على أن يعطيه ثلاثا من الإبل ويحتفظ بواحدة لكونها ناقة عزوف وتحتاج إلى عناية خاصة وستتعب محمد وكذلك هو بحاجة إلى حليبها لأنه يقدّمه كعلاج إلى أحد أهالي البلدة وينوي من ذلك الأجر والغفران عن عدم صومه وصلاته! فأخذ محمد الإبل الثلاث معه وشعر بالارتياح لأنه قدّم لأحد أبناء قبيلته معروفًا، ثم واصل السير ليلًا ونهارًا حتى وصل إلى مرعى القبائل واختار له مكانًا على ضفاف المرعى، بينما الإبل أطلق سراحها وذهبت إلى المرعى مزاحمة عشرات بل مئات الإبل هناك ومن مختلف الوسايم.

-23-

نادى سعيد على إبله صباحًا فجاءته واحدة واحدة، ثم مسك بخطام بنت عرجة التي اختارها من بين ثلاث الذلايل التي اقترحها عليه والده ورفع عليها الخرج والهبّان بعدما أوثق الشداد وركب على ظهرها وهو كلّه حيوية ونشاط وفرحة بالمرحلة والمكان الجديد الذي سيزوره! وأكثر من ذلك فرحته بالاستقلالية وتفويض والده له في هذه المهمة، فسار والإبل خلفه وأمامه قاطعًا السيوح والوديان والهضاب والجبال إلى أن وصل فنجا تلك البلدة الزراعية ذات الفلج المتدفّق فتوقّف عندها ليسقي إبله، وبعدما شربت الإبل تناول سعنه وأخذ يملأه بالماء ثم رفعه على ناقته وواصل السير وإبله بصحبته وبعد خروجه من جبال العق بمسافة طويلة رأى هناك أثرين للقوافل فواحدة تذهب إلى الشرق وواحدة إلى الجنوب، فأخذ شرقًا إلى أن أدركه الليل فتوقّف بإبله لترعى، أما هو فجلس يصنع قهوته وعشاءه، ثم نام قليلًا واستيقظ فجأة لسماعه صوتًا! وكان ذلك الصوت ليس بصوت إنس بل صوتًا لسكّان ذلك المكان من الجان! فراح يقلّب بصره يمينًا وشمالًا ولم ير أحدًا! فواصل نومه وعاود الصوت مرة ثانية وثالثة إلى أن انزعج محمد من

الصوت وقال لصاحب الصوت الذي لا يراه سأترك أرضك وسأرحل (لك الدّار ولي المدار)!

أما الإبل بعد ما شبعت من الرعي أخذتها سنة من النوم فراح ينادي كل ناقة باسمها، وكل ناقة تسمع اسمها تأتي إليه فورًا إلى أن اكتمل العدد فساقها إلى المكان الذي ينويه.

وصل وقت الظهر إلى المرعى المقصود وأخذ موقعًا من بين تلك المواقع ليضع أغراضه به ويكون له ولإبله مقرًا، والتقى بكل القبائل التي وصلت قبله إلى المرعى بما فيها أخواله آل سعد الذين جاءوا مثله من الباطنة، ومن القبائل التي وجدها في هذا المرعى (الهشم والموالك وآل وهيبة وبعضًا من البدو الحجريين والحرث) ولم يكن عدد الإبل كثيرًا في هذا المرعى لكون كل المراعي في عمانات خصبة.

الفصل الثاني

-1-

أخذ سعيد جولة في المرعى من أربع جهاته وتعرّف على الكثير من أهل الإبل ثم انتهاء به المطاف في عزبة سالم الهاشمي الذي أتى من الكامل وتناول معه العشاء هذه الليلة وسأله عن الكامل والوافي والجعالين جميعها الصحراء منها والساحل ثم سأل عن جماعته الحكمان: فقال له سالم الهاشمي: هناك مرعى آخر أكثر خصوبة يقع على أطراف رملة آل وهيبة من الشمال وبه مختلف أنواع العشب كما أن الجو هناك بارد. وكثير من القبائل اتجهوا إليه بما فيهم قبيلة الحكمان. فقال سعيد: إذا كان هناك مرعى أفضل فنحن لا نبحث إلا عن المرعى الأفضل! فلماذا إذن نجلس هنا؟ ثم قرر حالًا أن ينتقل إلى هذا المرعى الجنوبي من مرعاه الحالي وسأل عن الطريق المؤدي إلى ذلك فقال له سالم الهاشمي: عليك أن تسلك من هنا في دروب القوافل التجارية التي تعبر هذا المكان من وإلى مسقط عندما تأتي من الكامل والوافي وتلك الأطراف من مضارب قبائل الهشم وبني راسب والحكمان ومن جاورهم.

وفي حال تصل إلى الوافي فهناك جماعتك وهم سيكفونني مهمة إخبارك بالطريق صوب المرعى. بعدما جمع سعيد هذه المعلومات عاد إلى عزبته والشوق يحدوه إلى رؤية جماعته من جانب والرعي في المرعى الأكثر خصوبة من جانب آخر.

-2-

في الصباح شدّ سعيد الرحال إلى الوافي بإبله سائرًا وفق ما قاله دليله في رمسة البارحة إلى أن وصل الوافي بلدة جماعته وسأل عن أبناء عمومته من فخيدة القرافيص وأخواله من فخيدة آل تمّام ووجد الإجابة الشافية والتقوه بكرم الضيافة وحسن الترحاب ثم أخبرهم عن حاجته في المرعى المنعوت له جنوبًا من الوافي فأرسلوا معه بعضًا من رجالهم ليدلّه بالطريق المؤدي إلى هناك وزوّدوه بالزاد والماء وكل ما تحتاجه الرحلة وبعضهم زوّده بحمولة ناقة من التمر ليطعم بها إبله في الطريق قبل أن يصل المرعى.

وكان هذا الرجل الذي التقى به سعيد ابن عم أبيه ويسمّى خميس بن علي بن راشد بن نايعه فسرد له قصة رحيله من سوادي الحكمان إلى الوافي؛ حيث أنه سافر إلى هنا ودخل في العمل في التجارة ما بين الساحل الشرقي وسوق نزوى فكان يشتري من صور والجعالين البهارات والأرز – التي تجلب من الهند وشرق إفريقيا – ويبيعها في سوق نزوى. وأخبره بهذه التجارة أحد رجال الجنبة الذين يقطنون مدينة صور ولكنهم يقضون موسم القيض في بركاء لكونهم يملكون هناك

ضاحية اشتراها أحد أجدادهم القدامى، وكان هذا الرجل من أصدقاء خميس المقرّبين منذ الصغر فبعد مقيضة أحد السنوات سافر في المراكب البحرية مع حمد الجنيبي من بركاء إلى صور ثم عملا في التجارة معًا. وقال خميس: جئت مع حمد الجنبي من بركاء إلى صور وأنا لا أملك ثوبًا فكيف بناقة للسفر ورأس مال للمتاجرة؟! ولكن حمد سلّفني مبلغًا لأشتري به ناقة للسفر ومبلغًا للمتاجرة والفضل لله سبحانه وتعالى أولًا وحمد الجنيبي صديقي ثانيًا. فاليوم ها هو أنا على أفضل حال وأملك مجموعة من الضواحي في كل من: (الوافي والكامل وإبراء وسمد) وإذا أردت حاجة منّي فأنا ذخرًا لك وهؤلاء أبنائي بعد ما تزوجت من هنا من بنات جماعتي وأشار إلى أطفال صغار تنمّ أعينهم عن ذكاءٍ حادٍ وعقولٍ لا تخلو من تفكير تجاري. فشكر سعيد ابن عم أبيه خميس وواده على أن يعود إليه بعد انتهاء الخصب.

-3-

جفّت الغدران وتيبّست الأعشاب في مرعى القبائل مما جعل كل رعاة الإبل من شتى القبائل يتفرّقون كلٌ إلى مكان في عرض الصحراء وما كان بيد محمد الحكماني إلّا الرجوع إلى أماكن رعيه بالقرب من السوادي ولكن تلك السنة كانت المراعي القريبة منه تعاني من المحْل مما جعله يفكّر في أن يبيع بعضًا من الإبل ويشتري بها ضاحية وبعضًا منها يرسله إلى ولده سعيد. فبعد رجوعه من مرعى القبائل قام بذلك، فساوم أحد جماعته في السوادي على ضاحية وبعدما اتفق على سعر البيع أخبره بأن القروش التي في جحلته التي وضعها بالقرب من جحلة الماء لا تكفي حتى نصف قيمة الضاحية لذلك أراد منه أن يتمهّل في المطالبة بالمبلغ إلى أن ينتهي من جمع المبلغ.

وأعطاه مقدمًا ما يملكه من القروش ووعده بالبقية أن يأتي له بها بعدما يبيع الإبل فوافق الرجل وذهب محمد للأسواق الشعبية ليبيع خمسًا من إبله فجاء أولًا إلى سوق السوادي وباع واحدة ثم سوق بركاء وباع الثانية وبعدهما سوق السيب ولم يجد بيعه فواصل المسير إلى سوق مطرح وباع واحدة وتبقّت لديه اثنتين باعهما في سوق مسكد وعاد بالمبلغ إلى

صاحب الضاحية واستقرّ في ضاحيته يسقي نخيله كل يوم بذلك المنجور الذي رأى فيه راحة أكثر من متابعة الإبل في الصحراء.

أما ما تبقّى من الإبل وهن ثلاث فأرسلهن إلى ابنه مع قافلة جاءت من الساحل الشرقي إلى ساحل الباطنة للتجارة. ولم يتبق لديه من النوق واحدة ولكنه أبقى جملًا يتنقّل به وقت الحاجة من الضاحية إلى الجيران والجماعة وأحيانًا إلى الأسواق الشعبية وقت الحاجة في شراء لوازمه.

-4-

بعدما وصل سعيد بن محمد إلى مرعى الرمل ووجد مجموعة كبيرة من أهل الإبل وكل منهم أخذ جانبًا حول المرعى، فوجد جانبًا لآل أبو عيسى وجانبًا آخرًا لآل ساعد وغيره لآل وهيبة وآخرًا للزرعات وكذا جوانب للرواسب والحكمان والهشم وغيرهم من القبائل فاستقر في الجانب الذي يسكنه جماعته الحكمان وتعرّف على معظمهم ومن مختلف الفخائد وإن كان شريكه في العزبة أحد أبناء عمومته القرافيص.

وبعد عدة أسابيع من مكوثه وصلت إليه إبل والده الثلاث وخبره بتحوّله من راعٍ للإبل إلى راعٍ للنخيل وقال في نفسه: لقد استراح والدي والآن سيكون ما بين جماعته وأبناء عمومته. وتذكّر أحد أبناء عمومته من الوافي والذي تحدثوا عنه في ليلة من الليالي وهم يرمسون في عزبتهم وكان يسمى الرجل جمعه.

فجمعه عمل في رعي الإبل منذ عمره خمس سنوات فكان يتبع المراعي مع جدّه وهو صبي إلى أن توفى جدّه وواصل الحرفة ما يقارب الخمسين عامًا وفي إحدى الليالي فاجأ أصحابه في العزبة بأنه سيترك الإبل وسيبيعها ويشترى بها قاربًا وسيعمل في البحر مع أحد أبناء عمومته في

الساحل الشرقي بالقرب من مكان يسمّى الدّفة. وفعلًا قال وفعل والآن يعمل في البحر منذ سبع سنوات ولديه خيرًا كثيرًا؛ حيث أنه يمتلك مجموعة من النخيل في الوافي. وقال سعيد بن محمد في نفسه ولماذا لا أفعل أنا: إما مثل والدي أبيع الإبل واشتري بثمنها ضاحية أو مثل جمعه اشتري قاربًا؟ ثم غيّر الفكرة وقال لماذا لا أبيع هذه الإبل وأعمل في التجارة مثل خميس؟

-5-

بعدما جفّ المرعى وعاد سعيد بن محمد مع جماعته إلى الوافي وهو في حيرة من أمره لكون هذه السنوات هي سنوات المحل ولديه مجموعة كبيرة من الإبل!

ثم اهتدى إلى فكرة أن يبيع بعضها ويشتري بقيمتها مجموعة نخيل صغيرة أو ما يسمى (بالرهن) وفعلًا باع ثلاثًا من إبله وأخذ بثمنهنّ نخلًا بنظام (الرهن).

وفي ليلة من الليالي رأى فتاة شدّه جمالها وحرّكت بداخله هاجس الزواج؛ فذهب إلى خميس ليخبره بما ينوي به فشجّعه خميس على فكرة الزواج ووعده بأن يمدّه بما يحتاجه من مال ولكن سعيد بن محمد قال له: أنا لا أرضى أن تعطيني من مالك صدقة ولكنّي سأبيع عليك ناقة في حال تمت الموافقة من أهل الفتاة. فقال خميس: أفعل ما تراه مناسبًا لك. فأنا لن أخالفك فيه وما يهمني هو تكملة دينك واستقرارك هنا عند جماعتك وأبناء عمومتك.

فهمّ سعيد بن محمد في مهمة الزواج وفق ما خطّطا له هو وخميس وانتهت المهمة في بضعة أيام!

لكن سعيد بن محمد بعد زواجه بأيام وصله خبر وفاة والده ومرض والدته؛ فشدّ رحاله ومعه بعضًا من أبناء عمومته وجماعته ليقيموا العزاء. وعندما وصلوا وأقاموا العزاء وانتهت المدة لواجب العزاء طلب منهم سعيد بن محمد أن يرجعوا إلى أهلهم وبلادهم وشكر لهم هذا الصنيع. أما هو فجلس في السوادي عدة أشهر ملازمًا لوالدته في مرضها. كما أنه باع ضاحية والده التي خلّفها له كميراث على رجلٍ من قبيلة الربيعيّين كان معروفًا بالتجارة من الباطنة إلى البصرة وبالأخص تجارة التمور لكون الرجل هذا له أبناء عمومة في البصرة وأطرافها حيث أعتاد أن يحمل تمر الفرض إلى البصرة ويأتي بتمر القوصرة.

ولم تدم والدة سعيد طويلًا بل توفّت في هذه المدّة التي أنجز بها سعيد بن محمد مهمة الضاحية. فأقاموا عزاءها في بلدها السوادي، وحين انتهى العزاء ودع سعيد أخوانه من أمّه، وأخواله وكل جماعته، وفي غفلة من الناس تناول يد أخيه غير الشقيق ووضع بها مجموعة كبيرة من القروش، وودعه على أمل أن يكون بينهما تزاور وألا تمنعهما من التزاور المسافة التي تقع ما بين الساحل الشمالي والساحل الشرقي.

-6-

بعد عودة سعيد بن محمد من بلاده الأولى السوادي إلى بلاده الثانية الوافي تشاور مع زوجته أن يبحثا عن مرعىً لإبلهما وأغنامهما، وكانت زوجته لديها مجموعة من الغنم بعضها نالتها عن طريق (النِّحْلة) من جدّتها وهي طفلة والبعض اشتراها والدها لها.

أما سعيد فلديه الإبل التي بقيت بعدما باع بعضها واسترهن بها تلك النخلات. ففكّروا في مرعىً مناسب لهما وأخيرًا اهتديا إلى فكرة مراعي المضيبي التي تقع شرق بلدهما الوافي؛ فأخذا حلالهما وتوجّها إليها وما شجّعهما على ذلك وجود جماعة من القبيلة يقطنون المضيبي ويقع مكانهم ما بين الجبل الذي يسمّى جبل مدر والأفلاج وهي بلدة زراعية وحولها يسكن البدو من قبيلة آل وهيبة والقبائل المجاورة لها.

بعد بضعة أيام من السير في تلك الرمال والسيوح الواقعة ما بين الوافي والمضيبي وصلا إلى المكان المطلوب ودون أن يستعينوا بأحد رأوا الجبل المنعوت لهم قبل الوصول واقفًا كمن ينتظر الضيوف في مجلس رحب، ووجدوا حول الجبل بعضًا من المراعي ويقطنها بعضًا من (الفرقان) فسألوا عن فريق أولاد الجخّ الحكماني فدلّتهم راعية غنم كانت في شعبةٍ

خضراء تتوسط أغنامها، فوصلوا إلى أبناء عمومتهم أولاد الجخّ الذين ينتمون إلى نفس الفخيدة التي ينتمي إليها سعيد وهي فخيدة القرافيص، ولم يجدا إلا الاحتفاء والترحاب واستقرّوا بالقرب منهم إلى أن انتهى الخصب.

-7-

مرضت ناقة سعيد بنت ابن الخميسة التي ولدت في الوافي بعدما لقّح أمها سمحة جملٌ من بنات الخمايس في جعلان، وكانت ناقة ذات جمال وأدب، وقد اعتبرها في هذه المرحلة من أفضل إبله بعد بنت مصيحان أي أختها من الأم، وسأل أهل المعرفة في أمراض الإبل فقالوا له: ربما أصابها مرض النفاخ ولن تجد لها علاجًا إلّا في سمك السردين المجفّف ويوجد هذا السمك في الساحل الحدري مع جماعتك؛ فلم يتوان سعيد عن الإتيان بالعلاج لناقته بل سافر إلى الساحل الحدري وأحضر سمك السردين المجفّف الذي وجدهم هناك يسمونه العُومة، وأعطاها إياه لمدة ثلاثة أسابيع. بعد هذه المدة قامت بنت ابن الخميسة وكأنّها لم تمرض! فشكر الله وحمده على هذه النعمة وراح يسأل أهل الشأن في أمراض الإبل لكي يجمع الخبرة منهم ويعالج إبله في حال تعرّض لمثل هذا الموقف مستقبلا.

أمّا زوجته أم علي فبعدما أنجبت طفلها في هذه الرحلة أصبحت واحدة من مجموعة الراعيات في بطين الجبل اللواتي يتناوبن على الرعي يوميًا وجميعهنّ لديهنّ أطفالًا رضّع.

وكان عددهنّ يقارب الست راعيات، فكان نظامهن أن يذهبن للرعي ثلاث راعيات والثلاث الأخرى يجلسن مع الأطفال للرضاعة. والراعيات: اثنتان من قبيلة الحكمان أي أم علي وواحدة من بنات عمومتها أولاد الجخ، واثنتان من قبيلة آل وهيبة وواحدة من قبيلة الجوابر وواحدة من قبيلة القنّوبي. وكنّ جميعهنّ كأنهن أخوات حتى جارتهنّ سليمة الحبسيّة قالت ذات يوم: (لم أرَ في حياتي نساء مثلكنّ بهذا التعاون) وسليمة صادقة فيما قالته؛ فحتى الأبناء أصبحوا لكل واحدٍ منهم ستّ أمّهات!

-8-

مات الزرع وجفّ الضرع وأصبحت مراعي الجبل صفراء فتفرّق الشمل وانفضّ الجمع، وكان ذلك الوقت قد وافق وقت المقيض أي طلوع التمر ونضجه، فكل فريق من هذه الفرقان أخذ ناحية من البلدان الزراعية للمقيض ثم يتدبّر شؤونه فيما بعد، وكان أكثر الفرقان من آل وهيبة؛ فذهبوا إلى بلداهم التي اعتادوا المقيض بها، فبعضهم ذهب شرق الجبل أي بلدة الأفلاج، وبعضهم غرب الجبل أي برزمان والعيون وسناو، وبعضهم اتّجه شمالًا إلى السديرة والأخشبة والفتح، أما الجوابر فتوزّعوا ما بين بلدتي الردّة والمضيبي، وبالنسبة للقنانبة فاتجهوا إلى بلدة الأفلاج وبعضهم بلدة العينين، أما أولاد الجخّ من قبيلة الحكمان فاتجهوا إلى بلدة الافلاج لكونهم لديهم ضواح هناك ولهم نسبًا بأهل البلدة من المشايخ.

أما سعيد بن محمد وزوجته وابنه فتشاوروا فيما بينهم: هل يذهبون مع أبناء عمومتهم إلى الأفلاج أم سيعودون إلى بلدتهم الوافي شرقًا وهناك لهم أيضًا أموالًا؟ أم أين سيذهبون؟!

وأخيرًا اهتدوا إلى فكرة المقيض في البلدان الواقعة ما بين جبل مدر

وجبال العق بحيث يجدوا على الأقل مراعٍ ولو بسيطة لأغنامهم، وقد سمعوا عن بلدتي سمد والروضة وهما بالقرب من إبراء قد سقطت عليهما الأمطار قريبا وأرضهما ذات عشب من النوع الذي لا يموت بسرعة وإن كان قليلًا من حيث الكمية؛ فاتفقوا على المقيض في سمد والسكنى حواليها بعد انتهاء موسم المقيض، فجعلوا الإبل خلفهم والأغنام أمامهم إلى سمد بعدما مرّوا بالقرب من بلدة المضيبي والوقوف قليلًا لكي يذهب سعيد للتبضّع من سوق المسيلة ومواصلة السير إلى حيث نووا.

وصلوا بلدة سمد ليلًا فاختاروا مكانًا بالقرب من سفح جبل لكي يستطيعوا أن يكونوا ما بين السهل والجبل بحيث يتم الرعي في السهل واللجوء إلى الجبل عند سقوط الأمطار الغزيرة، فوضعوا كل أغراضهم في أركان السمر الثلاث اللواتي اختاروها مسكنًا لهم، وتركوا الأغنام تربض في الشعبة بالقرب منهم بينما الإبل اختاروا لها أن تبرك في شعبةٍ أخرى مجاورة.

على أمل أن يذهب سعيد صباحًا إلى البلدة ليأخذ نخلًا بنظام الطاني أي يشتري ثمارها فقط بهذا الموسم، وحين انتهاء الثمار تصبح النخلة ملكًا لصاحبها وكانت الصدفة أن يصل سعيد هذه البلدة في أيام الطاني.

-9-

حينما انشقّ الفجر كانت أم علي عند الغنم تحلبُ بعضها وتُرضع بعضها الآخر أي تقرّب ابن الشاة إلى أمه ليشرب حليبها، أما سعيد فذهب إلى الإبل ليصنّف السمين من الهزيل والمحتاجة للعناية أكثر من غيرها؛ فجاء عند اللواتي تحتهنّ حيران أي أولاد وعزلهنّ من مجموعة الإبل ليخصص لهنّ طعامهن الخاصّ فيما بعد، ثم جاء إلى إبل المطاريش أي النوق اللواتي يستعين بهن في رحلاته وأسفاره وخصّص لهن مكانٍ آخر، وبعد ذلك أطلق سراح البقية في الشعبة ذات الأعشاب الكثيفة.

عادا أم علي وزوجها كلًا من مهمته واتفقا على أن يذهب سعيد إلى البلدة ليستطني النخل، واتفقا على أن يأخذ للأكل أي للاستخدام البشري دون الإبل الأنواع الآتية: (الخلاص، الخنيزي، المدلوكي، قش الزبد، قش النعيم) ولم يذكرا نخلة النغال التي تبدأ في أول الموسم لكونها انتهى موسمها وهم وصلا البلدة بعد مقيض النغال، أما الأنواع المناسبة للإبل فقال سعيد بن محمد سأختار للذلّل: (المبسلي) أما أمهات الحشوان فسأختار لهنّ (النشَو).

وفعلًا ذهب سعيد إلى البلدة وأخذ بكل ما يملكه من قروش تلك

النخيل التي كان بحاجتها وكان الطناء قد تم من ضاحية رجل من قبيلة آل بوسعيد يسمى محمد وهو الوحيد في هذه البلدة أي سمد ولم يكن سعيد يعرفه سابقًا بل جمعتهم الصدفة بالقرب من شريعة سمد وسأله عمّن لديه نخلًا للطناء فقال له محمد البوسعيدي: أنا سأطنيك.

وبعد الطناء دار الحوار ما بين محمد البوسعيدي وسعيد الحكماني والتعارف أكثر وأكثر، فقال محمد البوسعيدي: -ردًا على سؤال سعيد الحكماني حين سأله لماذا أنت في سمد لوحدك – أنا أصلي من بلدة السيب على ساحل الباطنة ولكن بسبب خلافٍ حاصل بين أبناء القبيلة جئنا مجموعة يربطنا جدّ واحد إلى هذا المكان واشترينا منطقة صغيرة بالقرب من الروضة بقيمة 400 قرشًا، ثم شقّينا بها فلجًا وزرعنا عليه مجموعة من النخيل والليمون والمانجو والقليل من الفواكه الأخرى وأسمينا البلدة (الخضراء) لكونها اشتريناها بيضاء ثم حولناها إلى خضراء، أما عنّي شخصيًا فجئت إلى سمد بعدما اشتريت منها هذه الضاحية التي أنت الآن بداخلها، وجئت بزوجتي وأطفالي وابتنينا لنا بيتًا من الطين والجصّ هنا واستقرّت حياتنا منذ بضع سنوات ولا نزال على تواصل مع أهلنا في الخضراء بلدتنا الأولى والآن عنك أنت فمن أين جئت؟ فردّ

سعيد الحكماني وأنا كذلك من ساحل الباطنة من قرية سوادي الحكمان، وجئت قبل سنوات باحثًا عن العشب بإبلي إلى هذه الأماكن، ثم استقرّيت مع جماعتي في الوافي وتزوجت من عندهم ولكن أصاب الوافي المحل فجئت إلى المضيبي بحثًا عن المرعى بين شعابها والآن أحلّ شرق هذه البلدة أي جاركم. فقال محمد ولن تجد من جوارنا إلّا التقدير والكرم بإذن الله، فهذه المزرعة مزرعتكم والبيت بيتكم ولدي في المزرعة الكثير من الزرع الذي لا أحتاجه فبالإمكان أن تأخذوه لأغنامكم، وفي البيت لدينا أبقارًا نحلبها يوميًا ونصنع منها السمن وإذا احتجتوا منه شيئًا فأهلًا وسهلًا بكم، حتى وإن كانت زيارتكم لنا يوميًا فليس لدينا مانع بل على العكس تمامًا تفرحنا زيارتكم اليومية لنا. أما سعيد فبعد ما سمع ورأى هذا السخاء من محمد قال: ونحن كذلك لدينا حليب الإبل والأغنام بكثرة وبإذن الله سآتي لكم به يوميًا كلما جئت إلى قطف ثماري أو حشّ الزرع، واتفقا الجاران على ذلك قبل أن يفترقا.

-10-

في الصباح الباكر استعدت عائلة سعيد إلى زيارة عائلة محمد الواقعة في الطرف الآخر من البلدة وسط تلك الضاحية المليئة بالنخيل والليمون والمانجو والتين والموز والمحيطة بمنزلهم المكون من مجموعة غرف متجاورة مبنية بالطين والجصّ يمر أمامها الفلج في تلك الساقية التي تجري في كل يومٍ مرتين لكون نصيب الضاحية من نظام الري يؤهلها لذلك حيث يمتلك محمد أكثر من أثر من الماء.

دخلت عائلة سعيد الحكماني هذه المزرعة لأول مرّة قبل أن تعلم بأن الزيارات ستستمر لزيارات متوالية فيما بعد، وقد تصل إلى أكثر من عقدٍ من الزمان وبالرغم من أن عائلة سعيد البدوية فرحت بهذه الزيارة إلّا أن عائلة محمد الحضرية كانت أكثر فرحًا منها، وقدّموا لهم كل ما يملكونه من طعام للضيافة؛ فجاءوا بالقهوة والتمر والحلوى والخبز العماني وسمن البقر وعسل النحل مع عسل التمر وبعضًا من الفواكه التي توجد في مزرعتهم كالسفرجل والشاموم والمانجو والتين والموز والعنب، وفي آخر ساعات اليوم أو ما بعد صلاة الظهر قدّموا لهم الغداء المكوّن من الأرز والمرق والدجاج، وكان هذا اليوم يوم للتاريخ

حيث أن الذكرى التي خلّفها هذا اليوم لم تكن بالذكرى الهيّنة، وبعد الانتهاء من الزيارة عادت عائلة سعيد إلى مكانها في الشعاب بعدما اتفقت مع عائلة محمد على أن تزورهم في القريب العاجل، وفعلًا لم تمر إلّا أيام حتى تمت الزيارة من جانب محمد وعائلته، أما الضيافة التي أعدّها سعيد لجيرانه وضيوفه فكانت تتمثل في رأس جمل صغير أي ذبح أحد أبناء الإبل للضيوف مع ذبيحة أخرى أو رأس آخر من الغنم، وملأ مجموعة من الأوعية من حليب الإبل والأغنام، إضافة إلى القهوة الأساسية من البنّ العدني والتمر، وعند استعداد محمد وعائلته للعودة قسم سعيد يمينًا بأن يأخذوا معهم ناقة من بنات عرجة كهدية وقسمت أم علي أن تهدي الأطفال أربعة من رؤوس الأغنام الصغيرة بحيث لكل واحد منهم رأس من الغنم، بينما والدتهما لها ولوحدها أربعة رؤوس من الغنم الكبيرة، فوضع محمد البوسعيدي يديه على رأسه مستغربًا من هذا الكرم والسخاء الباذخ ولكنه لم يرفضه بل أخذ ما أهدوه إيّاه وعاد إلى البيت وقد حدّد مجموعة نخلات كهدية لهم.

ثم استمرت الزيارات بين العائلتين طيلة عمر الجوار وعلى هذا المنوال حيث الهدايا لم تتوقّف بينهما ولكنها ليست كالهدايا الأولى بل اقتصرت

على التمر والسمن وحليب البقر من جانب عائلة محمد البوسعيدي وحليب الإبل والغنم وبعضًا من لحوم الصيد البرّي من جانب عائلة سعيد الحكماني.

-11-

بعد تناوله فوالة الصباح المكوّنه من خبزة الجمر الذي صبّ عليه من حليب الغنم وأطفأه بحليب الإبل، وقبل هذا تناوله لقهوة الصباح أي ذاك الرطب والفنجان المرّ جدًا من القهوة، ركب سعيد الحكماني على ظهر ذلوله متوجهًا إلى البلدة التي أخذ منها النخيل ولم تكن إلّا لحظات وهو في ضاحية صديقه محمد البوسعيدي.

فنادى عليه من وراء غرف الطين ليأخذ منه الحابول ثم يخرف الرطب من نخلاته ويجدّ بعضًا من العسق للإبل، ولكن لم يكن محمد يسمع النداء فراح سعيد يبحث بنفسه عن الحابول ووجده في إحدى النخلات الصغيرة بالقرب من ساقية الفلج وحمله على كتفه ثم توجّه به إلى صرمة البرني وتناول منها المخراف والقفير اللذين علّقهما محمد بها وواصل السير إلى نخلاته ليخرفها ويجدّها في آنٍ واحد كعادته منذ شهر؛ حيث يأتي إلى هنا بين كل يومين أو ثلاثة أيام ثم يعود بالرطب الخاص به وأولاده والرطب مع البسر الخاص بالإبل، وكانت هذه المرة تقريبًا آخر مرّة يأتي إليها إلى الضاحية لكون الموسم على وشك الانتهاء، فقام بالمهمة وعاد إلى عائلته قبل أن تتوقّف الشمس في كبد السماء بما يملك

من رطب على ظهر ناقته.

أما علي الصغير ففرّ من جلسته رغم صغر سنه فرحًا بمجيء والده، وكان والده قد قطف من شجرة المانجو الواقعة في طرف ضاحية محمد بضعة ثمار لعلي، وأول ما التقى به ناوله تلك الثمار وواصل عمله، أما أم علي فراحت تصنّف هذه البضاعة فوضعت رطب البيت في مكان ورطب وبسر الإبل في مكان آخر وكذلك السح في مكان ثالث فأخذ مجموعة من البسر يتخلّلها بعضًا من الرطب ورماها أمام الإبل كعادته.

-12-

قبل أيام وصل إلى الشعبة التي ترعى فيها أم علي أغنامها نساء من قبيلة السوالم وأصبحت بينها وبينهن علاقة طيّبة فقالت في نفسها لا بدّ لي أن أستضيفهنّ في بيتي بعد انتهاء الرعي فهن جاراتي وأنا لا يمكن لي ألا أستضيف جاراتي.

وفعلًا التقت بهن في المرعى كالعادة وجلسن يتحدّثن عن كل ما يخصّ الأغنام والمراعي والأمطار وحين حانت ساعة العودة من المرعى قالت لهنّ أم علي: (أنا اليوم عازمتكن) فحاولن الرفض ولكن لم يفلحن في ذلك فآمنّ بالأمر الواقع ومشين معها إلى البيت فقدّمت لهنّ الواجب من قهوة وحليب وغداء، وكان غداء ذلك اليوم من لحم الغزال الذي اصطاده زوجها من شاغي الجبل المجاور عندما كان يبحث عن إحدى إبله التي لم تأتِ لمدة ثلاث ليالٍ إليه أو كما قال عنها لزوجته قبل البحث:(أعزبت ثلاثة أيام عنّي!) وانتهى الغداء فذهبت السوالف وجاءت وفي حين غفلة منهن ففاجأتهنّ أم علي بطلبها في تعليمهن لها (دفلة السوالم) التي يتم بها علاج الغنم والإبل والناس في حالة الإصابة بالعين، ولأن أم علي لديها العشرات من الأغنام، وغالبًا ما تواجهها

هذه المشكلة أي إصابة غنمها بالعين. وترى من الضرورة أن تتعلم (ردود العين) ولم تستطع النساء كتمان القراءة الخاصة بالعين عنها وذلك حياء منهنّ بعد هذه الضيافة السخيّة، ففي تلك الجلسة مباشرة قامت النساء بتعليمها ولكونها تجيد القراءة والكتابة مذ صغرها لكونها درست على يد جارتها المعلمة شمسة في الوافي فكتبت (نص الدفلة) الذي أخذته منهنّ في جلد شاة بصخّامة متبقّية من النار التي تشعلها للطبيخ ثم حفظته عن ظهر قلب وشكرت من علّمها. بعد ذلك جاءت لحظة الوداع على أمل اللقيا في المرعى غدًا.

-13-

وضع سعيد الشداد على ظهر الناقة وعلّق الهبّان في أحد أطرافه بعدما ملأه بالزاد، ثم تناول الخرج وعلّقه هو الآخر ووضع بداخله ساحته التي يضعها على كتفه عند البرد وشملته كذلك ثم زانة القهوة، وأخيرًا تناول الخطام وقفز على ظهر ذلوله كعادته وعادة أجداده.

وادع زوجته ووصّاها بأن تلجأ إلى جارها محمد البوسعيدي وعائلته إذا احتاجت شيئًا من الأماكن البعيدة. أما هو فسيسافر إلى أخوانه وأخواله في بلدة السوادي من سواحل الباطنة كما أنه ينوي أن يغيّر وجهته من رعي الإبل إلى التجارة فربّما وجد هناك أغراضًا وأتى بها ليبيعها في الأسواق الشعبية هنا وخاصة سوق إبراء المجاور الذي كان في قمة تألّقه في هذه السنوات، ووضع في ركنة إحدى السمر التي يسكنها بندقية من نوع أم عشر وغلّفها بقطعة قماش وقال لزوجته في حال جاءكِ من لا تثقي في نواياه فأطلقي عليه النار وتعشّي به قبل أن يتغدّى بك، ثم انتحى ناحية البلدة الزراعية قاصدًا صديقه محمد الذي طلب منه أن يخبره في حال سفره إلى الساحل الشمالي لكون زوجته موزة تطلبه أن تزور أحد قريباتها في الشرادي لموادعتهنّ قبل أن يسافرن إلى زنجبار

للعيش هناك بعدما أوصى السيد سعيد بن سلطان على أهالي عمان بأن يأتوا إليه في زنجبار للعيش في تلك الجنان الخضراء، وفعلًا وصل سعيد الحكماني إلى صديقه محمد البوسعيدي في الموعد المحدّد ووجده أعدّ لزوجته راحلتها وعدّتها وعتادها حيث كانت على ظهر جمل رافعة كل ما لديها من عدّة للرحلة وعلى ظهرها البندقية.

سارا سعيد ورفيقة دربه من سمد الشأن إلى أن أظلم عليهم الليل في جبال سمائل قبل أن يصلوا إلى الساحل الشمالي فبرّكا راحلتيهما، ثم تشاركا في صنع العشاء، فسعيد قام بمهمة خبز الجمر بينما موزة قامت بمهمة طبخ المرق وبعد ما انتهيا من العشاء حانت ساعة النوم، وكانت تلك الليلة من إحدى الليالي شديدة السواد أو كما يسمّيها سعيد ظلماء العشربن، كما أن الرياح تصدر أصواتًا مخيفة عندما تمر ما بين الجبال وكذا بنات آوى تتعالى أصواتها وفي هذا الجو المرعب الذي لم تعتد عليه موزة إلّا أنّها لم يرفّ لها جفن بل نامت كنومها في صفّة الضاحية، أما سعيد فقبل أن ينام وضع بينه وبين موزة قرن خنجره الذي استلّه من القطاع، وهذا دليل على أنه لن يغدر برفيقة دربه وأمانة صديقه المخلص، وفي الصباح الباكر واصلا السير إلى أن وصلا السيب

أولًا وذهبت موزة إلى قريباتها في الشرادي، أما سعيد فواصل السير إلى الساحل وبالتحديد بلدة السوادي لزيارة أقاربه واتفقا على أن يعودا معًا بعد انتهاء الزيارات.

-14-

ارتفعت الشمس قليلًا عن موقع الشروق وارتفع محمد البوسعيدي على ظهر ناقته ليتفقّد أحوال جيرانه عائلة سعيد، وحين وصل إليهم وجد أم علي وطفليها (علي وصبيحة) على نار الصباح يتناولون الفوالة من خبز وحليب، فقدموا له القهوة ثم الفوالة بينما هو من جانبه سألهم عن حاجتهم لكي يقرّب لهم ما يحتاجونه، وكانت في صباح هذا اليوم إحدى الإبل أصبحت على غير عادتها! فلم تذهب إلى المرعى بسبب مرضٍ ما، وقالت أم علي لمحمد: (أرى أنها تحتاج إلى الوسم ويقال بأن في إبراء رجلٌ من قبيلة آل وهيبة خبيرٌ في علاج الإبل لا يزال لم يرجع إلى الرمال بعدما جاء للمقيض في إبراء) فلم يتوان محمد البوسعيدي عن المهمة بل وضع الخطام في رقبة الناقة المريضة وقادها خلفه ذاهبٌ بها إلى الرجل المنعوت في علاج الإبل، ووجد الرجل ووجد علاج الناقة معه بالوسم، ثم عاد بها إلى أم علي، وعاد بعد ذلك إلى أولاده في الضاحية.

أما أم علي فأخذت أطفالها معها في اليوم الثاني لتتفقّد أحوال أبناء محمد الذين سافرت عنهم أمهم موزة لزيارة أقاربها في السيب فوجدتهم في أحسن حال وسرّها ذلك سرورًا كثيرًا، وعادت إلى موقعها وهي في كامل

الاطمئنان، وقامت الزيارات بين العائلتين بدون انقطاع إلى أن عادا موزة وسعيد.

-15-

وصل سعيد بن محمد الحكماني إلى بلدته السوادي وأخوانه وأبناء عمومته، وأول من واجهه كانوا أخوانه وأخواته، فمكث معهم لأكثر من سبعة أيام وليالٍ متنقلًا ما بينهم، حيث تسابقوا على استضافته واحدًا تلو الآخر، وسألهم عن كل صغيرة وكبيرة حدثت في البلاد من موت ومولد وزواج ومرض وسفر وأمطار وجفاف وإلى آخر الأخبار التي حدثت معهم، ومن تلك الأخبار المهمة التي أخبروه بها: سفر خاله إلى الهند للعلاج مع أحد أبنائه، وسفر مجموعة من أبناء القبيلة والقبائل المجاورة إلى أماكن متفرقة، فمثلًا خليفه الحكماني سافر إلى ظفار للقاء جماعته هناك ولا يعلمون هل سيعود أم سيستقر هناك؟ أما حمدان فقد سافر إلى مكّة المكرمة في موسم حج ولم يعد ويقال بأنه استقر به الحال في المدينة المنورة وتزوج من بناتها وأنجب أطفالا، أما خلفان الهادي وأسرته فغادروا البلدة إلى بلدة الرستاق بعد شرائهم مالًا بها، وبالنسبة للحوسني الذي أمه من الحكمان قد كبر وغادر السوادي بعد وفاة والدته إلى جماعته الحواسنة في الخابورة وتزوج واستقر بين جماعته، كما أن الكثير من رجال سواحل الباطنة ومسكد بعدما جاءتهم دعوة السيد

سعيد بن سلطان حاكم مسقط وزنجبار للعيش في زنجبار لم يتوانوا في السفر! خصوصا بعدما سمعوا عن الحياة الفردوسية بها.وأغلب من تبقّى في هذه البلدان هم ما بين نخيلهم وإبلهم وقواربهم وتجارتهم من وإلى أسواق مسكد شرقًا وصحار غربًا ونزوى جنوبًا، وبعضهم يسافر بين الحين والآخر إلى ضفة الخليج الأخرى المقابلة لساحل الباطنة، وهنا تدخل سعيد بن محمد وقال :كيف تسافرون إلى بلاد الفرس وهم لهم عليكم حقوقًا ودماءً؟! أم لم تسمعوا عن تلك المعركة التي وقعت ما بيننا وبينهم في ساحل بركاء عندما جاءوا ليحتلّوا ساحلنا واجتمعنا نحن قبائل الباطنة ضدهم بقيادة الإمام أحمد بن سعيد؟!

وتدخّلت هنا إحدى العجائز الحاضرات وقالت: (يا ولدي سعيد أخوانك وأبناء عمومتك أصبحوا لا يهتمّون بالتاريخ بل تجد الكل منهم في عمله ولم يسألوا كبار السن عن الأحداث القديمة).

وصمت الجميع إلّا حمود تكلم قائلًا: يا خالتي نحن نعرف التاريخ كله ونعرف قصة الحرب التي قامت ما بين الفرس الغزاة من طرف والقبائل العمانية بقيادة الإمام أحمد بن سعيد من طرف آخر والذي طرد الغزاة شرّ طردة ولكنّ السنين مرّت وأصبحتا الجارتان من أقرب البلدان

لبعضهما البعض؛ فمنذ عقود وهم يأتون للتجارة هنا ونحن نذهب إلى التجارة هناك ولم تحدث بيننا أي حادثة.

فاقتنع سعيد بن محمد بما قاله حمود وقال: هذه سنّة الحياة (من كان عدوّك في يوم يصير صديقك في يومٍ آخر والعكس يصحّ).

انتهى الحوار والعلم والخبر عن البلد وواصلوا الحديث العام حول كل شيء بعيدًا عن السفر والحرب والأحداث قديمها وجديدها واستمتع سعيد بن محمد بهذه الزيارة أيّما استمتاع وأطفأ أشواقه بها مع العلم أنه على استعداد تام للرحيل وبدون أن تذرف له دمعة فهو لم يعتد الجلوس في بلدته منذ أن فارق والدته وعاش مع والده في الإبل من سيح إلى سيح ومن شعبةٍ إلى شعبة! ولا يزال على هذا المنوال ولكنه كان مع والده فقط! أما الآن فيمارس ترحاله وحلّه بصحبة عائلته وإن كان أحيانًا يتركهم في المراعي ليقضي حوائجه ثم يعود إليهم في أسرع وقت.

-16-

التقت موزة البوسعيدية بكل من جاءت إليهن لزيارتهن وعبرت كل الحوائر للسلام على من توفى لهنّ قريبًا أو زاد في عائلتهنّ أطفالًا أو من مرضنَ ومن تزوّجت بناتهنّ إلّا أن بعض من زارتهنّ لم يعرفنها لكونها من خارج البلدة ولم يتوقعنّ بأن جذورها من هنا وما هي إلّا الفرع الذي انقطع عن الأصل والآن يعود! لكن هناك من يعرفنها عزّ المعرفة وخصوصًا الكبيرات في السن، وشكرنها على الزيارة وأرسلن معها التحايا إلى كل قريباتهنّ في بلدها، وحين همّت بالسفر جهّزن لها حمل ناقتها الهدايا الكثيرة والثمينة ومن مختلف الأنواع.

-17-

منذ الفجر وسعيد بن محمد يعدّ العدّة للسفر من السوادي التي جاءها لزيارة أخوانه وأقاربه، وقد زوّدوه بشيء من التمر والسمك المجفف وهو بدوره قام بإعطائهم بعضًا من القروش التي جاء بها لهم من ثمن إحدى إبله التي باعها خصيصًا ليأخذ نقودها في زيارته إلى أخوانه، فقد اعتاد في زياراته أن يأتي إلى أخوانه بشيء من النقود لكونه ميسور الحال وهذي عادة رعاة الإبل يعطون ويأخذون، كما أن أخوانه اعتادوا كلما يأتي اليهم ومعه بهطاته من المال يزوّدونه بما لديهم من زاد لا يوجد لديه ومصنوعات للاستخدامات المتعددة كعدة البيت أو الراحلة.

قبل أن ينطلق سعيد بن محمد الحكماني أخذ جولة في مجموعة من الأسواق الشعبية الواقعة ما بين بركاء والسيب واشترى ما يحتاجه من لوازم كالرصاص الذي اشتراه من دكان صباح بن مصبح الصبحي والخنجر التي اشتراها من دكان سيف بن سفيان السيفي الواقع على ساحل المنومة إضافة إلى أغراض أخرى أقل أهمية من هذه الأغراض.

-18-

انطلق سعيد بن محمد من السوادي إلى الشرادي حيث رفيقة دربه وجارته موزة البوسعيدية ووجدها على أتم الاستعداد للسفر؛ فواصلا الطريق منذ الصباح حتى مغيب الشمس الذي حاصرهم وهم في منتصف الطريق محاطون بالجبال من كل صوب فتوقّفا لا لكي يناما ولكن لكي يريحا راحلتيهما ويتناولا عشاءهما، وقد تقاسما الأدوار فكان نصيب موزة طبخ الأكل بينما نصيب سعيد الحصول على صيدة من تلك الشعبة الواقعة على سفح الجبل ولم يتوان في ذلك بل اصطاد في طرفة عين مجموعة من الأرانب البريّة وأتى بها للعشاء بينما موزة أكملت صنع العشاء، وفي هذه اللحظة عاد سعيد إلى الشعبة مرة أخرى لأنه وأثناء بحثه عن القنص رأى شجر الأشخر يتكاثر في هذه الشعبة فقال: هذه فرصتي في جمع الأشخر لصناعة رصاص أعوّض بها ما فقدته من رصاص في القنص، وكان ممن يجيدون صنع الباروت الذي يستخدمه أهل البنادق في صنع الرصاص أو ما يسمونه بالرمي.

انتهيا سعيد وموزة من العشاء وواصلا السير ليلًا إلى سمد، وقبل افتراق الطرق قالت موزة أنا الآن سأذهب لوحدي إلى بيتي ولا أحتاج إلى

مساعدة بل سيساعدني هذا الرفيق! وأشارت إلى البندقية التي على كتفها؛ فضحك سعيد وقال إذن فلنفترق ثم أرسل تحية صادقة منه إلى صديقه محمد البوسعيدي وتناول بعضًا من ألواح السمك المجفف وزوّدها بهنّ بينما موزة تناولت مما حصلت عليه من هدايا من الشرادي من بينها (سوار فضّة) وأعطته إيّاه كهدية إلى صديقتها وجارتها أم علي إضافة إلى بعضٍ من الحلوى للأطفال.

-19-

انشقّ فجر الصباح واجتمعت عائلة سعيد بن محمد حول النار التي تشتعل وفوقها برمة القهوة وبرمة اللبن وعلى طرفٍ منها خبزة الجمر وعلى طرفٍ آخر اللحم المشوي الذي تبقّى مما اصطاده سعيد على طريقه وهو عائدٌ من السفر.

ودار الحديث بين سعيد وأم علي حول كل شيء وتساءلا عن العلم والخبر حول الحل والترحال، فقال سعيد: لم نأت بالجديد عدا أخبار السفر إلى زنجبار لكثير من سكّان ساحل الباطنة وساحل مسكد، أما أم علي فقالت: المرعى من حولنا جفّ والإبل والغنم بدأت جميعها بالهزال وجاءنا هنا محمد البوسعيدي وأخبرنا بأن الفلج معهم بدأ يتناقص وحتى النخيل بعضها أصابها الجفاف وهناك من يفكّر من أهل سمد بالسفر إلى زنجبار أيضًا.

فقال سعيد: وما رأيك أنتِ الآن؟

قالت أم علي: أرى أن نعود إلى أهلنا في الوافي، وقديمًا سمعت جدّي يقول: عندما يصيبكم المحل (لزّوا بحر أو سلطان) والأفضل لنا أن نبيع النصف من هذه الإبل والغنم ونشتري بها جمالًا نكدّها في البضائع ونقل

أهل الساحل الشرقي في المقيض إلى البلدان الزراعية أو نشتري بثمنهنّ قارب وتشتغل أنت في صيد الأسماك. وهناك لنا جماعة في كل من الدّفة ورأس الحد على الساحل الشرقي، وأنا وأطفالي سنكون في بلدة الوافي مع أهلنا وفي حال عادت الأمطار وأصبحت الأرض خصبة بإمكاننا أن نعود نحن كذلك إلى الإبل والغنم والمراعي.

-20-

في مساء هذا اليوم ذهبت عائلة سعيد الحكماني لزيارة عائلة محمد البوسعيدي وكانت زيارة وداعيّة؛ حيث سعيد وأم علي قرّرا الرجوع إلى بلدتهم الوافي ولم يكن في علمهم أن عائلة محمد كذلك تنوي السفر إلى زنجبار إلّا بعد ما تمت الزيارة والكل علم بنوايا الآخر في السفر وافترقا على أمل أن اللقيا ستكون متى ما سنحت الفرصة، وبعد الزيارة عادت عائلة سعيد بن محمد إلى سكناها في الشعبة ولم تكن إلّا سويعات النوم ليلًا تفصلهم عن السفر.

وشدّت الرحال صباحًا إلى بلدة الوافي شرقًا وكانت الخطة واضحة وهي بيع النصف من الحلال (الإبل والغنم) وشراء قارب صيد من الساحل الشرقي بقيمة الإبل، وبالنسبة لقيمة غنم أم علي كانت خطّتها أن تشتري بها بعضًا من الملابس والحلي وتمارس البيع والشراء في بلدتها والبلدان المجاورة لها والممتدة من الساحل إلى الداخل، وقد وصلت القافلة المكونة من أب وأم وأطفال هم: (علي وصبيحة وحمود) ليلا عند بيت والدة أم علي.

-21-

أصبح الصباح يطل من نافذة الوافي على عائلة سعيد بن محمد وزوجته أم علي والتقوا بأهلهم وحدّثوهم عن أخبارهم صغيرها وكبيرها وقديمها وجديدها، ولم تمضِ إلّا أيام قليلة وسعيد بن محمد وأم علي والأولاد يسوقون بعضًا من إبلهم وغنهم إلى السوق الشعبي، وفعلًا حققوا أهدافهم فباعوا ما أرادوا بيعه في هذا السوق العريق سوق الكامل واشتروا ما أرادوا شراءه، فقد اشترى سعيد بن محمد عدة الصيّاد لكونه ينوي السفر إلى الساحل الشرقي للعمل في مجال صيد الأسماك ولا بد له من شراء عدة الصيد من هذا السوق، أما القارب بإمكانه أن يشتريه بعدما يتعلم القيادة فهو بدوي وليس له معرفة بقيادة القارب في البحر قبل أن يتعلم ذلك.

فيجب أن يذهب أولًا مع الصيّادين الماهرين لكي يتعلم منهم القيادة لأنها صعبة وليست كالصيد الذي بإمكانه أن يرمي شباكه في عرض البحر وتأتي الأسماك فتلتصق بالشباك مباشرة دون عناء كبير، ولهذا السبب اكتفى بشراء عدة الصيد فقط، أما أم علي فاشترت كذلك بضاعتها للعمل جنبًا إلى جنب مع زوجها لكسب الرزق، وعاد الزوج

وزوجته إلى الموقع الجديد بالقرب من أهل الزوجة، واستقرت أم علي مع أهلها تمارس تجارتها بينما سعيد بن محمد ذهب إلى الساحل الشرقي للعمل وكان برفقته أحد جماعته ممن يعملون في صيد الأسماك ولديهم قوارب خاصة لهذه المهمة.

-22-

عندما كان سعيد بن محمد يستعدّ للسفر إلى العمل في البحر كان ابنه علي يرغب في السفر معه ولكنه رفض سعيد أن يذهب ابنه معه خوفًا عليه من حوادث البحر، وكان حاضرًا تلك اللحظة راشد الأخ الأصغر لأم علي فقال راشد لابن أخته: أنا سآخذك معي إلى الرمل وسترعى معي الإبل. فوافق علي على هذا الحل، وكان راشد من رعاة الإبل الذين لا يتنازلون عنها سواء في السنوات العجاف أو السنوات السمان، ويردّد دائمًا أبياتا يحفظها منذ صغره من فن الهمبل:

(الهين من ربّك عطيّة   والسفن وستادن وشرها

شور السفن عند الهبايب   والهين إن خانت زقرها)

فلم ينزل البحر يومًا ولم يمشِ في قافلة للتجارة ولم يدخل ضاحية نخيل قط بل كان من بيت والدته إلى عزبة إبله وذلك اليوم التقى بأخته وابنها علي صدفة ولم يكن مخططًا لذلك بل جاء يزور والدته كعادته في زيارتها كل ثلاثة أشهر في الغالب ثم يعود إلى إبله.

أخذ راشد ما يحتاجه من أغراضٍ من السوق الشعبي وابن أخته علي

عنده رديفًا على ظهر ناقته الخميسة، وكانت لدى زوج أخته سعيد بن محمد أربعًا من الإبل المتبقية بعد البيع فأخذها عنده بعدما بادر بذلك من ذاته في حفظ إبل زوج أخته وحفظ ابن أخته كذلك، وانطلقا راشد وعلي والإبل الأربع خلفهما إلى عزبة راشد التي تقع بين عروق الرمل على حوافّ رملة وهيبة من الشمال الشرقي.

وجلسا في هذا المكان ما يقارب ستة أشهر لكون الصحراء أصبحت من حولهما تعيش جفافًا وتعاني من نقص الأمطار بداية بل من انقطاعها التام في الأخير، ولكن راشد لمعرفته التامة بما يتعلق بالصحراء وأعشابها وبالإبل ومراعيها استقرّ في هذا المكان إلى أن يسمع عن أمطار في أماكن أخرى وقد تشبث بهذا المكان لوجود بعضًا من شجر الغاف التي يستعين بها في سدّ جوع إبله، فإما أن تأكل الإبل بنفسها من الغاف وخصوصًا الإبل ذوات الأعناق الطويلة أو أنه يطلع هذه الأشجار ثم يأتي منها بالطعام للإبل التي لا تستطيع أن تأكل بنفسها، والشيء الثاني الذي جعل راشد يحب هذا المكان هو وجود عشبة الثرمد في بعض الشعاب المحيطة بالمكان، لكونه يملك بعضًا من الإبل التي تعتمد على الثرمد ويسميها (الهوارم).

في هذا الجو يعيش علي مع خاله راشد يتعلم منه كل صغيرة وكبيرة وجليلة ودقيقة ليكافح وينافح ظروف الصحراء فيما بعد وتلك نية راشد ومقصده من تعليم ابن أخته، فهو يعدّه الإعداد التام لمواجهة الحياة الصحراوية؛ فعلّمه كل ما يخص الإبل والصحراء بشكل يومي بل كل صباح ومساء وهو يضيف إليه مهارة أو معرفة جديدة في عالم الإبل خاصة والصحراء بشكل عام.

لكن جاءت الأخبار عن غزو الكفار للساحل الشرقي واستعداد القبائل للدفاع عن حدودهم، وقد سمع راشد عن الخبر وسافر للمشاركة في المعركة وجعل ابن أخته علي يخلفه في العزبة، ولم تمض إلّا أسابيع ويصل الخبر إلى علي بأن خاله راشد استشهد في المعركة.

-23-

عاش سعيد بن محمد ما بين صور ومصيرة بحرًا وما بين الدفة والوافي برًّا سنوات لا بأس بها وبعدما أتقن مهارة قيادة القوارب وأصبح نوخذي اشترى قاربًا لوحده وصار يعمل به على طول وعرض البحر ولكنه لم يتخلّ عن عناده الذي اكتسبه من حياته مع الإبل في صغره وشبابه، ففي ذات يوم والرياح على أشدّها عزم أن يصطاد في خور الشجعان ما بين الأشخرة ومصيرة وقال له زملاؤه الصيادون: من الأفضل أن تؤجّل سفرك هذا السبوع لكون حسبة النجوم تشير إلى وقوع ضربة الأحيمر وهذا الريح يجعل البحار هائجة الأمواج بشكل عظيم ومخيف! وغرق سابقًا مئات البحّارة بسببه، ولكن سعيد بن محمد لم يتنازل عن كلمته وسافر إلى خور الشجعان معاندًا ناصحيه! ولم تكن إلّا أيام معدودة وجثّة سعيد بن محمد مرميّة على الساحل! فقد وجدها أحد أصدقائه القدامى من قبيلة الجعافرة وأقسم يمينًا بأن هذه الجثّة جثّة سعيد بن محمد الحكماني ذاك الذي ذهب للصيد قبل أيام ولم يسمع نصيحة الخبراء من أهل البحر، ثم أرسلوا طارشًا لأهله في الوافي وجاءوا لاستلام جثته وحملها إلى مقبرتهم في الوافي، وبهذا أصبحت المهمة برمتها على

عاتق علي بن سعيد سواء العائلة المكونة من أم وأخوان أو العزبة التي ورثها عن خاله، وعلي بن سعيد لم يكن بالرجل البسيط! فقد أعدّه خاله خير إعداد؛ لذا من المحتّم نجاحه.

الفصل الثالث

-1-

علي بن سعيد هذا الشاب الذي نشأ منذ نعومة أظافره في الإبل لم يرض غيرها بأي حرفة رغم الظروف الصحراوية القاسية ورغم توفّر الحياة الأكثر راحة من حياة الإبل خصوصًا وهو من شرق عمان حيث الساحل يلتقي مع الداخل ومصادر الرزق تتنوع ما بين صيد الأسماك والسفر البحري إلى شرق أفريقيا للتجارة وما بين البساتين الزراعية المملوءة بالخيرات الوفيرة التي تنعش التجارة المحلية والدوليّة وكثرة أصحابه وجماعته الذين يعملون في مختلف المهن البحرية والزراعية والتجارية إلّا أنه أبى إلّا العمل في رعي الإبل ومتابعتها من مرعى إلى مرعى!

فعندما أمحلت المراعي المحيطة ببلدته الوافي لم يرضخ لهذا المحل بل عزم على الترحال، وفي ذات ليلة شتوية وهو يضع فنجان القهوة الأخير على الحصير ووالدته وأخوانه يتحدثون معه عن كل ما يخص بلدهم من خير وشرّ، قال لهم: أنا رجلٌ خلقه الله للإبل ولن أعمل في أي مهنةٍ غيرها ما دمت على قيد الحياة! وبما أن المراعي عندنا أصابها المحل لا بدّ لي من الترحال والبحث عن مراعٍ أخرى لإبلي حتى وإن كانت أقصى

الجنوب أو أقصى الشمال أو أقصى الغرب! وأنتم ترون إبلي هذه التي أمام أعينكم إما ستموت جوعًا من هذا المحل أو أنّي سأبيعها في أسواق القصّابين وهذا لا يجوز في شرعي أبدًا! لذلك لا بد لي من الترحال في أرض الله الواسعة، ولم يستغربوا مما قاله علي بن سعيد لأنهم يعلمون شغفه بالإبل ويعلمون أيضًا تمسّكه بما يراه من رأي، فقالوا له جميعهم وبصوتٍ واحد: (توكّل على الله واطلب الرزق لإبلك أينما شئت، ولكن لا تقطع زياراتك ورسائلك عنّا)، فقال علي بن سعيد: لكم منّي الوعد والعهد بذلك.

قام علي بن سعيد يلمّ شمل الإبل وساعدته العائلة في المهمة على أمل أن يغادر البلد فجرًا، وسألته والدته عن المكان الذي ينوي؟ فقال: (عن أخبارهم أن الحيا في رملة وهيبة من الطرف الجنوبي المحاذي لبرّ الحكمان، وأنا وجهتي ستكون إليها).

-2-

أدّى علي بن سعيد صلاة الفجر وبعدها مباشرة تحرك بإبله متجهًا إلى رملة آل وهيبة، ولم يكن على معرفة تامة بالطرق التي تؤدي إلى المكان الذي يقصده، ولكنه حفظ ما سمعه من الأخبار بأن الخصب في جنوب الرملة ومواجهًا للبحر فاتجه في هذا الاتجاه أي قطع الرملة جنوبًا على ظهر ناقته بنت الخميسة وإبله تتبعه، ومرّ على مرتفعات رملٍ ومنخفضات أودية، وتعرّض للحرّ في النهار وللبرد في الليل، ولكنه لم تستغرق رحلته إلّا ثلاث ليالٍ ليست كاملة، فقد وصل بعدها إلى المكان المطلوب وأخبره بالمكان ذلك البساط الأخضر الذي يغطّي الرمل وتصول وتجول بداخله الإبل من خواويرٍ وعرابيّ، ورأى الأعمدة التي وضع رعاة الإبل عليها أغراضهم تحيط بهذا البساط الأخضر، وأول ما واجهه من الرجال هنا رجل يبحث عن ناقةٍ في حالة مخاضٍ ذهبت منذ الصباح ولم تعد والآن الشمس تشرف على المغيب! وكانت في يد الرجل مجموعة حبالٍ من ليف النخيل اعتاد على حملها كلما أراد البحث عن الإبل وتختلف مسمياتها باختلاف استعمالها فمنها الخطام الذي يستخدمه في رقبة الناقة عندما يريد أن يقودها أو يركبها ومنها القيد

الذي يستخدمه في حالة أراد أن يقيّد حركة الناقة بوضعه في أياديها وبطريقتين: الأولى تقصير القيد والأخرى تطويله، وما كان من هذا الرجل إلّا أن سأل علي بن سعيد عن ناقته. أما علي بن سعيد فردّ عليه بأنه لم يرها وأنه أتى إلى هذا المكان للتوّ ولا يعلم أين يحدّد سكناه.

فقال الرجل: أطلق إبلك في المرعى وتعال معي ستتقهوى، ولكن قبل أن نذهب لمكاني سنأخذ جولة بسيطة في البحث عن ناقتي لعلّي أجدها في تلك المجموعة من الإبل الواقفة غرب المرعى وهو يشير بإصبعه إلى مجوعة من الإبل، فوافق علي على رأي الرجل وأطلق إبله وهو كعادته في المراعي وعادات أهل الإبل جميعهم يطلقون إبلهم هكذا في المراعي دون أدنى تردّد في إطلاقها لكون الإبل بها وسم ولكل مالك إبل وسمه الخاص به حيث يبدأ بوسم القبيلة ثم الفخيدة ثم الفرد وأسرته، ويسمى في عرفهم (الوسيمة).

مشى علي بن سعيد بجانب الرجل للبحث عن الناقة ووجداها في المكان الذي قصده الرجل، فتناول الرجل من مجموعة الحبال التي بيده حبلًا أي خطام وخطم ناقته وقادها وذهبا بها هو وضيفه علي بن سعيد إلى العزبة، وفي الطريق أخذا يتبادلان أطراف الحديث، فقال الرجل لعلي بن

سعيد: (من أنت من القبائل) قال علي بن سعيد: (أنا حكماني)، وأعاد علي تدوير السؤال: (ومن أنت من القبائل) ؟فقال الرجل: (أنا عمري).ثم أردف الرجل قائلا لعلي بن سعيد: إذن في هذا المرعى ستجد أبناء قبيلتك واذا أردت أن تنضم معهم فهم في الطرف الآخر من المرعى.

فقال علي بن سعيد: إذن سأذهب إلى جماعتي بعدما آخذ واجب الضيافة لذا أريدك أن تدلّني على عزبهم بالتحديد. فقال الرجل: هذه القهوة أمامك ولدي كرمة لبن عزوف أريدك تأخذ منها نصيبك، أما جماعتك فليسوا ببعيد عنّا وأشار بيده إلى مكان قريب جدًا منه وقال له: هذي عزبة رفيقك سلطان الحكماني.

فأخذ علي بن سعيد الحكماني الواجب ثم غادر الرجل شاكرًا له حسن ضيافته إلى رفيقه سلطان الحكماني.

-3-

وصل علي بن سعيد عند مكان سلطان الحكماني وتبادلا التحية والعلم والخبر، ثم تناول علي بن سعيد واجب الضيافة، وما إن انتهى من الواجب إلّا وسلطان يفاجئه بالسؤال عن قبيلته ومكانه ومقصده؟ فقال علي بن سعيد: أنا علي بن سعيد الحكماني جئت من الوافي إلى هنا بإبلي للرعي بعدما أصاب منطقتنا المحل وعندما وصلت إلى هذا المرعى قيل لي بأن هناك رجال من قبيلتي الحكمان أيضًا جاءوا بإبلهم وأخبروني تحديدًا عن عزبتك أنت سلطان الحكماني فجئت لجواركم. قال سلطان: نعم أنا سلطان الحكماني رفيقك وهذه عزبتي والمكان مكانك، وبعد أيام سيأتون إلينا مجموعة من جماعتنا الحكمان من وادي الجوبة وسواحل بر الحكمان والشعاب المحاذية للسواحل، وبعضهم يتواجدون بالقرب من هذا المكان الذي يسمى الجبين، ويأتون لإبلهم صباحًا ومساءً ثم يذهبون إلى عائلاتهم في وادي السيل القريب منّا وأشار له غربًا إلى أطراف الغاف التي بالإمكان رؤيتها من رملة الجبين.

ومرت بضعة أيام وعلي بن سعيد مع سلطان يتحدثان عن كل ما يخص الإبل من جانب وما يخص القبيلة من جانب آخر، ومما سأله سلطان

خلال هذه السوالف التي دارت بينهما عن أجداد علي بن سعيد من هم؟ فقال علي: أنا أجدادي من القرافيص الذين يسكنون ما بين الباطنة وبالتحديد من سوادي الحكمان والجعالين ومنهم من مسكنه ما بين محوت والمضيبي وهم قوم رحّل أغلب أوقاتهم تنقضي تحت الأمطار في عرض وطول البوادي والحواضر العربية، وأنا من بيت بن نايعه ذلك الرجل الذي قتل عشرين رجلًا في إحدى الحروب القبلية الواقعة ما بين قبيلتنا الحكمان وقبيلة أخرى والذي تم فصل السيف عن كفه بالسمن بعدما لصق سيفه بكفه وهو يصول ويجول في المعركة! فقال سلطان: نعم الرجل ونعم الجماعة ولقد حدثني أبي عن هذه الحادثة. فرد علي بن سعيد: (ونعم بحالك الرفيق).ثم واصل الحديث قائلًا قد وصّاني أبي وأبي وصّاه جدّي بأن بلدان الحكمان كلّها بلدانكم ولا تتنازعوا مع جماعتكم في صغيرة ولا كبيرة إلّا في مسألة الدم فإن قتلوا منكم أحدًا فخذوا بحقّكم واقتلوا من قتلكم، أما عدا ذلك فلا تختلفوا مع جماعتكم وصانعوا وتجاوزوا عن الأخطاء البسيطة؛ فالإنسان كما تعلمون ليس له إلّا جماعته، وواصل علي بن سعيد مرة أخرى مضيفًا إلى حديثه قوله: والآن ستجد فخيذتنا القرافيص في كل مكانٍ من الأماكن التي يسكنها

الحكمان من ظفار إلى الباطنة وحتى في اليمن والحجاز ولن تجد لهم خلافًا مع جماعتهم منذ أن تفرّقوا في الجزيرة العربية بعد انهيار سدّ مأرب إلى يومنا هذا الذي أحدّثك فيه. فقال سلطان: وأنا أشهد لهم بذلك، وقد أخبراني أبي وجدي وسمعت من غيرهما بهذا الكلام وبهذه الوصايا وكما قلت: (الرفيق وقت الضيق) والرجل بدون جماعة مثل الدلو بدون الرشا!

وبعد أيام من جلوس سلطان وعلي لوحدهما جاءت مجموعة كبيرة من جماعتهم الحكمان بإبلهم للرعي ووصل عددهم ما يقرب الخمسة عشر رجلًا في ذلك المكان فأحسّت الجماعة بالقوة والمنعة عندما رأت تجمّعها بهذا الشكل واستطاعت أن تصبح كغيرها من القبائل الأخرى القاطنة على ضفاف المرعى من حيث العدد.

وتبادلوا الأحاديث وأكلوا وشربوا وضحكوا معًا وتنازعوا أحيانًا خصوصًا عندما يصل الحديث إلى ذمّ السلالة الفلانية من الإبل وتلك السلالة يملكها أحد أفراد المجموعة، ففي ذات ليلة وبعد العشاء مباشرة قال حمدان :(بنات اللسكيّة ما يفتقن الشنّ!) مما أثار حفيظة سلطان هذا الرجل المتزن الذي أسّس العزبة والذي يدير الحوار وينصح الجماعة

إلّا أنه لم يستطع السكوت عن حمدان في هذا الخطأ الجسيم! فقال له وشواربه ترتجف من الغضب: (بنات اللسكيّة سابقات ناقة جدك ليلة موت بن السلوجي!) فلم يسكت حمدان عنه كذلك وقام من مجلسه رافعًا صوته وضاربًا بعصاه على الأرض: (ناقة جدّي بنت عرجة لي شالّه جثة جدّتك يوم ميّته في شعبة الراكه)! فما كان من سلطان إلّا أن يقبض بيده على قرن خنجره! وقام حمدان بالفعل نفسه ولم يكن بينهما وبين القتال إلّا شعرة ولكن قامت الجماعة كلّها بالصلح بينهما! وفورًا تصافحت القلوب قبل الكفوف ووضعوا الخشم على الخشم حتى كأن هذه الحادثة لم تحدث خصوصًا بعدما انتهت الرمسة وتناول سلطان المدواخ من يد حمدان!

-4-

عند انحراف الشمس قليلًا عن كبد السماء لجهة الغرب أخذ علي بن سعيد جولة استطلاعية في المرعى فبدأ بمنتصفه ثم اتجه نحو الضفاف الغربي من المرعى؛ حيث النساء الراعيات يجلسن مع أغنامهنّ، وكانت هناك مجموعة منهنّ تجمّعن على القهوة بجانب الأغنام بينما واحدةٌ منهنّ خرجت من المجموعة لوحدها بحثًا عن شاةٍ لها مفقودة من الغنم والتقيا علي بن سعيد وهذه المرأة فبدأ بالتحية عليها وردّت له التحية بمثلها وتساءلا عن العلم والخبر بعدما تبادلا التحية والسؤال عن الأحوال ثم عرضت عليه أن يذهب إلى مجموعة النساء اللواتي جاءت من عندهنّ ليتقهوى إن أراد ذلك، ثم وجّهت له سؤالًا: (هل رأيت شاة سوداء وتحتها مالود؟) فقال علي: لا. فقالت إذن أنا سأواصل البحث عن شاتي واستأذنت منه بالرحيل بينما هو لم يستطع أن يتحرك من موقفه لشدة ما أصابه من الإعجاب بجمالها الأخّاذ وبأسلوبها الجذّاب! فراح يبحث عن أفكارٍ تجعله يعود إليها مرّة أخرى ليحظى بلقاءٍ ثانٍ بها كهذا اللقاء ثم اهتدى إلى أن يذهب هذا اليوم إلى عزبته على أمل أن يأتي غدًا لهذا المكان لعلّه يلتقي بها وقد أحضر سؤالًا وهو أن يسأل عن

ناقته المقيّدة التي سيتركها هنا بالقرب من مرعى الأغنام، وفعلًا نفّذ علي بن سعيد ما خطّط وأشرق الصباح وجاء علي بن سعيد إلى المرعى بعدما ترك ناقته المقيّدة بالليل في نفس المكان وبالصدفة التقى بثلاث نساء من بينهن تلك التي التقى بها بالأمس وألقى عليهنّ التحيّة ثم سألهنّ عن ناقته المقيّدة فقلن له: مرّت هنا ناقة مقيّدة حمراء ثم أشرن له إلى جهة الشمال من موقعهنّ وقبل أن يهمّ بالرحيل وكان يهمّ وهو متثاقلًا، قلن له: (تعال لتتقهوى) فوافق على ذلك وذهب معهنّ لموقع القهوة وناولنه القهوة وسألنه عن قبيلته ومن أين أتى؟ فأخبرهنّ ثم سألهنّ عن قبائلهنّ وكان سؤاله الظاهر عامّا لكن باطنه خاصًا، فهو يريد أن يسأل عن تلك المرأة التي لفتت انتباهه، وعرف بعد إجابتهن بأنّها امرأة من وادي السيل وأبيها في الطرف الآخر من المرعى أي بالقرب من المكان الذي تقع فيه عزبته وجماعته ولم يقل شيئًا بعد ذلك بل غادرهنّ وفي نيّته أن يتزوج هذه المرأة ولكنه لا يعلم أهي متزوجة أم عزباء على الرغم من أن حدسه ومعرفته تقول له بأن المرأة لا تزال غير متزوجة. فهو خبير بالنساء من خلال مشيتهنّ وقد رأى مشيتها حينما كانت تبحث عن شاتها ليلة أمس بأنها ليست متزوجة، وسار إلى مكان

والدها باستعجالٍ غير طبيعي حتى وصل إليه وأخذه جانبًا من بين الرجال وطرح عليه موضوعِ الخطبة. فقال الرجل: أنا ليس لديّ المانع في ذلك ولكن لا بدّ أن أستشير البنت وأمها وسأخبرك بالرد بعد ذلك.

فقال علي بن سعيد: لك ذلك.

-5-

حينما عاد حمود بن سليم إلى بيته في رأس الوادي أخبر أولًا زوجته أم سليمة بموضوع الخطبة وقالت أنا ليس لدي مانع وبقي أن يعرض الموضوع على ابنته سليمة صاحبة الشأن وفعلًا عرض عليها خطبة علي بن سعيد الذي التقى بهنّ يوم أمس في المرعى، فقالت: (أنا موافقة ولكن الرأي لكما) فقالا الأب والأم: ونحن نوافق على زواجك.

واتفقوا على أن يحدّدوا المهر الذي يريدونه ويخبرون علي بن سعيد بالموافقة ثم بالمطلوب من المهر. وعاد الأب إلى المرعى ووجد علي بن سعيد في عزبته فأخذه جانبًا وأخبره بالموافقة وبالمهر المطلوب من البنت وأمها في الحال. ووافق علي بن سعيد على ذلك واتفقا الأب وعلي بن سعيد على أن يسافرا إلى سناو على ناقتيهما للملك خلفان البراشدي، وفي بضعة أيام تمت الملكة ثم الزواج وذهبت سليمة بنت حمود مع زوجها علي بن سعيد. وكان ذلك يتوافق مع جفاف المرعى في الجبين وانتشار الناس في الصحراء بعد انفضاضهم عن المرعى.

-6-

كانت وجهة علي بن سعيد وزوجته بعد الجبين إلى مرعى آخر في الشعيب وإن كانت مساحة المرعى ليست بالكبيرة كما أن العشب ليس بالكثيف ولكن ولأنه لا يوجد مرعىً آخر غيره اتفقا علي وزوجته سليمة على الترحال إليه بحلالهما؛ فهو لديه ما يقارب العشرين ناقة ويزيد قليلًا بينما زوجته سليمة كانت تملك مجموعة من الغنم يصل عددها إلى أكثر من ثلاثين رأسًا بما فيها أغنام والدتها التي كانت ومازالت تحت رعايتها وقد حلّا في هذا المرعى إلى أن يكتب الله لهم مرعىً آخر ولم يكتف علي بن سعيد بهذا المرعى لإبله بل كان يأخذ بعضهن إلى وادي المديرة ليأكلن من شجر الغاف وخصوصًا ذوات الأعناق الطويلة اللواتي يجذبهن شجر الغاف والسمر أكثر من الأعشاب الصغيرة، والسبب الآخر لوجود علي بن سعيد الذي امتد لسنوات طويلة في وادي المديرة هو وجود آبار الماء التي يسقي منها إبله ويشرب منها أحيانًا عندما ينفد الماء العذب ولم يتمكّن من الذهاب إلى بئر حج.

ومضت الشهور حتى جفّفت شمسها عشب الشعيب فنزلا هذه المرّة بكل ما يملكانه هو وزوجته من حلالٍ في وادي المديرة بجوار بعضًا من

سكّان الوادي من فخايذ الجحاحيف ومن ناسبهم من القبائل وهم أهل إبل ووجودهم في هذا الوادي شبه مستقر كما أن الوادي هذا من الوديان التي لا تمحل لكون تربته رملية وتستطيع أن تحتفظ بالماء في أسفلها لسنواتٍ طويلة مما جعل غافها دائمة الاخضرار وجعل الإبل فيها من أفضل الإبل في البادية لكونها تقتات من شجر الغاف المعروف بقوّته؛ فهو شجر طويل القامة كثير الورق ينتج في موسم الصيف ثمارًا تسمّى حنبل ويتحوّل هذا الثمر إلى جاف ويسمّى كاسّة بعدما يتساقط من الغاف بسبب الرياح الموسمية وخصوصًا هبوب الكوس الآتي من سواحل بحر العرب في فصلٍ يسمى الخرف وهذا يقابل فصل القيظ في المناطق الزراعية الواقعة في الشمال من هذا الوادي، وبالرغم من أن هناك الوديان المجاورة كالجوبة والسيل والشريخة والبصير بها نفس الأشجار ولكن تربتها ليست رملية كوادي المديرة وهذا ما جعل علي بن سعيد يختار وادي المديرة من بين الوديان حتى لم يختر وادي الجوبة للسكنى والذي سكنه قديما جده السابع ذات سنوات خصبة ويسكنه جماعة من قبيلته بالتجاور مع قبيلة الفوارس من الجنبة ولم يختر وادي السيل الذي يسكنه والدا زوجته، وممن جاورهما من فخائد آل وهيبة

الأخرى بل اختار وادي المديرة ولسنوات طويلة حتى أن نصف أبنائه ولدوا في هذا الوادي المبارك.

ووصلت إبل علي بن سعيد وأغنام زوجته إلى أعداد ليست بالقليلة بل بأعداد مذهلة لمن يسمع عنها أو يراها حتى أصبح يُضرب بها المثل في المنطقة كلّها فمن قيل له لماذا لا ترحل إلى المراعي الفلانية بإبلك وغنمك؟ يقول: (ما عندي إبل علي بن سعيد ولا غنم سليمة بنت حمود!) كناية عن كثرة العدد للإبل والغنم التي تستحق التنقّل بها.

لكن علي بن سعيد نادرًا ما يرحل للمراعي بعدما وجد هذا المكان الثري بالطعام لإبله وغنمه وفي حالة رحل بإبله فلم يرحل إلّا إلى المراعي الكبيرة جدًا كقوع الجوبة المجاور للوادي أو الجبين الواقع في الشرق من الوادي أو شامة الواقعة في جهة الجنوب وفي مرات قليلة جدًا يخرج بإبله إلى جدّة الحراسيس والعدابة غربًا، بينما شمالًا ارتحل ثلاث مرات إلى سيح القرين وسيح الصليب ووادي الدوح ولكنه لم يمكث إلّا شهرًا في كل منها!

أما زوجته فلم تتنقل من مكانها إلّا إلى السيوح المجاورة لمدة لا تتجاوز الشهر ثم تعود إلى الوادي ما عدا قوع الجوبة الذي لم تتأخر في الرحيل

إليه عندما يخصب ولكنه عانى المحل لفترة من الزمن بسبب عدم وصول وديان المعالي إليه التي تأتي من داخلية عمان وتحديدًا من نزوى والجبل الأخضر والوديان المجاورة.

-7-

سقطت الأمطار بغزارة على كامل مناطق عمان أسالت الوديان الكبيرة والصغيرة من الداخل إلى الساحل! ومن بين الوديان التي سالت وادي حلفين الذي هبط من أعالي الجبل الأخضر وواصل مسيره بقوة قلَّ نظيرها متجهًا إلى وديان الساحل الحدري عابرا مجموعة من الوديان. فما كان من علي بن سعيد إلّا الخروج من وادي المديرة إلى سيح الشعيب المحاذي للوادي من جهة الشرق حيث أن سيح الشعيب يعتبر المنجاة من وادي المديرة عندما يمتلئ بالماء فأخذ إبله وأغنام زوجته إلى السيح ومعه الأولاد حيث بعضهم معه يسوق الإبل وبعضهم مع أمّهم يسوقون الغنم.

أمّا وادي حلفين فقد وصل إلى وادي المديرة فملأه بالماء ثم واصل الجريان نحو القوع فوادي الجوبة فالمسيلة فحجح حتى وصل إلى البحر مشكّلًا نهرًا صغيرًا على سطح البحر جنوب جزيرة محوت!

-8-

مرّت بضعة أيام فقط على وجود الماء في القوع ثم نبتت الأعشاب المائية ك(السعادى) مثلا واجتمع الناس حولها من كلِّ حدبٍ وصوب.

فشدّ علي بن سعيد وعائلته الرحال إلى القوع واختاروا موقعًا مناسبًا لحيواناتهم على ضفافه، وقد جاورهم في هذا المكان مختلف القبائل البدوية من آل وهيبة بمختلف فخائدهم والجنبة بمختلف فخائدهم ثم الحراسيس و الدروع و المهرة وآل كثير والرواشد والعفار والبطاحرة والعوامر وغيرهم الكثير من القبائل.وفي مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر تعرَّف علي بن سعيد الحكماني على الكثير من رجال هذه القبائل وأصبحوا فيما بعد من أصدقائه المخلصين فلم ترحل قبيلة من المرعى بعد جفافه إلّا ومنها صديقًا له وهكذا الوضع مع زوجته فقد كونت صداقات قوية مع نساء القبائل المجاورة ولكونهما من النوع الذي لا يضع حاجزًا أمام الآخرين بل سلاستهم وحسن أخلاقهم أهّلتهم بأن يكوّنوا علاقات واسعة مع الناس.

أما بالنسبة لماشيتهم من إبل وغنم وجدت ضالّتها في قوعِ الجوبة حيث العشب الوفير ولكن دوام الحال من المحال والمراعي لها صلاحية معينة ثم تنتهي.

فلما جف المرعى تفرّق الجمع وعلي بن سعيد وزوجته من ضمنهم ففكّروا في البديل واهتدوا إلى المكوث في وادي الجوبة الواقع جهة الشرق من القوعِ وخصوصًا في مكانٍ منه يسمى كريّع.

-9-

ساق علي بن سعيد وأبناؤه الإبل إلى كريّع وخلفهم سليمة وبناتها بالغنم واستقرّوا شمال المورد الذي يسمى المكان باسمه أي (كْريّع).

وتحت شجرة تسمى الذبّاحة وهي شجرة غاف متعانقة مع شجرة رصراص كبيرة الحجم ووارفة الظل. كان بعض السفافير الذين ينقلون الأسماك المجففة من الساحل الحدري إلى أسواق البلدان الزراعية داخل عمان يستظلّون تحتها كلّما مرّوا بوادي الجوبة.

وفرّقت سليمة أغنامها على مجموعة الغاف المجاورة فوضعت زريبة خاصة للغنم التي تريد أن تولد قريبًا منها وزريبة أخرى للغنم ذات الأولاد الصغار أبعد بقليل ثم زريبة أخرى للبهم الأكبر عمرا.

أما علي بن سعيد فراح يوزّع الإبل كذلك فخصّص مكانًا للإبل العِزْف أي التي معها مولودًا لا يتجاوز بضعة الأشهر، ومكانا آخرا للإبل المداني أي قريبة الولادة، كما خصّص مكانًا للذلول التي اختارها من بينهن للمطاريش وخصّص مكانًا آخرًا للجمال التي يحمل عليها البضائع عندما يحتاج إلى السفر لممارسة البيع والشراء ليسدّ حاجة عائلته، وآخر الأماكن خصّصه للإبل المتبقية أي المكان العام لكل

الإبل غير المحتاجة إلى عنايةٍ خاصة.

وما شجع علي بن سعيد على الاستقرار هنا هو ما كان يتميز به هذا الوادي من وفرة الماء أولًا فالمورد الذي بقربه أي (كريّع) كان وافر الماء بحيث يكفي لشرب الآلاف من الناس والإبل والغنم والحمير والطيور وكل ما خلقه الله! أما الميزة الثانية لهذا الموقع الذي اختاره علي بن سعيد فكانت في كثرة شجر الغاف ووفرة ظلّها وثمارها خصوصا بعدما وصله وادي حلفين وجدد نظارته وزاد من وفرة مائه.

أمضى علي بن سعيد سنواتٍ من السكنى في هذا المكان حتى كبروا أولاده وتزوّجوا جميعهم من رجالٍ ونساء.

-10-

أنجب علي بن سعيد الحكماني من زوجته سليمة بنت حمود عشرة أولادٍ من الذكور والإناث، وبين كل عامٍ وعام يخرج من العائلة واحدٌ أو واحدةٌ للعيش في مكانٍ آخر بعد الزواج.

فتزوجوا الأبناء من القبائل المجاورة على التوالي: (أولهم تزوج من عند جماعته الحكمان أما الثاني فتزوّج من قبيلة الجحافي والثالث تزوج من قبيلة العمري والرابع تزوج من قبيلة المسلّمي والخامس تزوج من قبيلة الحميدي) أما البنات: (فتزوّجت الأولى من قبيلتها الحكمان أما الثانية فقد تزوّجت من قبيلة الفارسي والثالثة تزوّجت من قبيلة الساعدي والرابعة من قبيلة القعدوي والخامسة من قبيلة المحاربي).

وكل الأبناء والبنات أنجبوا أطفالًا وأصبح لعلي بن سعيد بن محمد القرفوصي الحكماني أحفادًا كثر سواء من البنات أو البنين في مختلف القبائل التي تقطن محوت برا وبحرا. وبهذا أصبحت فخيدته من أكثر الفخائد عددًا في قبيلة الحكمان بمحوت وأكثرهم نسبًا بالقبائل المجاورة على امتداد الساحل الحدري.

-11-

بلغ علي بن سعيد من العمر ما يجعله يترك الأسفار الطويلة ويكتفي برعي الإبل في حدود وادي الجوبة فقط، فكان كلما أشرقت شمس الصباح ذهب بمجموعة من إبله إلى أفضل شجرة غاف ليقطع بعضًا من أغصانها ويجعلها طعامًا لإبله خصوصًا تلك الإبل التي لا تستطيع أن تذهب بعيدًا للرعي.

أما وقت الظهر فكان يجلس تحت ظل شجرة الغاف التي بجانب بئر كريّع وذلك لسقي الإبل الحائمة على المَوْرَدْ ظمئًا سواء إبله أو إبل الآخرين! فكان يجرّ الماء من بطن البئر بالدلو ثم يملأ حوضًا بناه من الطين خصّيصًا للإبل العطشى، وكان يقصد بعمله هذا الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى، كما أنه يقضي صلواته تحت ظلّ هذه الغافة المجاورة لبئر الماء بعدما يصدح بالأذان، حتى أصبح يعرفه أهل الوادي باسم (المطوّع) لأنه أول من صدح بالأذان في هذا المكان، كما أنّ فعله الخيري في سقي الإبل العطشى جعلهم ينظرون إليه على أنه من افضل الناس الذين عرفهم الوادي في السعي إلى مرضاة الله وحب الخير للناس مما جعل الكثير من جماعته وغير جماعته يتّفقوا على أن النور الذي رأوه

حول قبره ليلا بعد موته ليس إلّا تلك الأعمال الخيرية التي كان يمارسها في حياته.

أما أبناء علي ين سعيد فانتشروا في المنطقة ما بين راعٍ للإبل ومسافرٍ للتجارة ما بين البحر والبرّ، وبعضهم استقر في المناطق الساحلية، وعمل بمهنة صيد الأسماك.

وامتدت الأماكن التي سكنوها أحفاد علي بن سعيد ذكورًا وإناثًا من الرويس إلى سدرة ساحليًا، وبعضهم محاذيًا لهذه السواحل في المناطق الصحراوية من وديان وشعاب ومنهم من انتقل إلى السكنى في قرى وسيوح المضيبي!

-12-

في ظهر يوم الجمعة قبل أن تميل الشمس عن كبد السماء ذهبت زوجة علي بن سعيد إلى بئر كريّع لتسقي أغنامها كالعادة وتجلس قليلًا مع زوجها الذي اعتاد الجلوس تحت الشجرة لسقي الإبل ولكنّها هذه المرّة وجدت علي بن سعيد بجانب البئر متمدّدًا وفي يده الدلو فنادته ولم يجب ثم حرّكت جسده ولم يتحرك وأخيرًا تأكدت بأنه أتاه قضاء الله وقدره بعدما لاحظت انقطاع تنفّسه؛ فما كان منها إلّا أن ذهبت إلى الغافة وأخذت بندقيته التي اعتاد تعليقها في أحد أركان الغافة وأطلقت عدة طلقات لكي يأتيها من يسعفها، وفعلًا اجتمع الناس من كل مكانٍ بعدما سمعوا صوت السلاح وأخذوا علي بن سعيد للدفن بعدما أرسلوا الطارش إلى أولاده في كل مكانٍ من الصحراء للساحل وجميعهم امتلأوا حزنًا وكمدًا على فراقه؛ فمنهم من يقول: من سيسقي الإبل بعدما رحل علي بن سعيد، ومنهم من يقول ومن سيؤذن للصلوات بعدما رحل علي بن سعيد، وكذلك هناك من أحزنهم فراقه لأنهم سيفارقون من يستضيفهم ويكرمهم ويغدقهم بفيض ابتسامته ولكنهم جميعًا آمنوا بالقضاء والقدر وعلموا بأن علي لم يرحل إلّا وهناك من سينوب عنه في

مهمّاته الإنسانية النادرة وخصوصا لوجود من يشبهه من أبنائه في أخلاقه وتديّنه. عدا ثلاثة أشخاص كانوا يحسدون علي بن سعيد على أخلاقه أولا وكثرة ماله ثانيا وكثرة أولاده ثالثا! فقال حمد بن حمدون:(فكّتين منه بعد لو يموتن بوشه وراه كان أحسن!) أما علي بن خميس فقال: (استراحت الدنيا من أذاناته ينهق كل يوم وكل ليلة كأنه حمار!) لكن غاسي بن سالمين الذي كان أعقلهم وأشدّهم خصومة في آن واحد قال: (كيف تقولون مات وهو تارس الوادي بعياله!).

المؤلّف في سطور

- عبد الله بن سعود الحكماني.
- شاعر وكاتب عماني.
- مواليد١٩٨٣م/محافظة الوسطى(محوت).
- ماجستير لغة عربية (نقد أدبي).
- شارك في عدة ملتقيات أدبية وبرامج إذاعية وتلفزيونية.
- نشرت الكثير من نصوصه في الصحافتين: (الورقية والالكترونية).

- الإصدارات:

ترجمة مشاعر2012م، شعر شعبي، ورقي.

كائن غريب2017م، شعر شعبي، ورقي/الكتروني.

التيوس والشاة2019م، قصص قصيرة جدا، ورقي/الكتروني.

برج الصدارة2020م، شعر شعبي، الكتروني.

من خارج السرب2020م، شعر شعبي، الكتروني.

الأفق الصحراوي2020م، هايكو فصيح وشعبي، الكتروني.

ثرثرة كاتب 2020م، مقالات ونصوص، الكتروني.

من البدو2020م. شعر فصيح، الكتروني.

الناقة الجافلة2020م، شعر فصيح، الكتروني.

الحويّر2021م، قصص قصيرة جدا، الكتروني.

أم الصروم وأختها2021م، قصص قصيرة وقصيرة جدا، الكتروني.

هيّا نضحك2021م، فكاهيّات شعبيّة، الكتروني.(جمع وإعداد).

جنون العقلاء2021م، مقالات و نصوص، الكتروني.

كلام المجانين2021م، شعر فصيح، الكتروني.

في ربوع محافظة الوسطى2021م، حوارات ثقافيّة، الكتروني.

في محيط الأدب والثقافة2021م، حوارات ثقافيّة، الكتروني.

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

هذا العمل الإبداعي برعاية داربسمة للنشر الإلكتروني

بشراكة مع جروب ملتقى الأقلام المُبدعة...

للاطلاع على الصفحة الرسمة لداربسمة للنشر الإلكتروني على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

عن أخبارهم

تنويه

عزيزي القارئ: هذا العمل من وحي الخيال الأدبي
وفي حال تطابق مع شيء من الواقع فهو من باب
المصادفة لا أكثر ولا أقل.

عبدالله بن سعود الحكماني

دار بسمة للنشر الإلكتروني

+212 771 814 934

basma24design@gmail.com

bassmabook

www.darbassma.net